عتبة عبد الكريم

كمال القاضي

الطبعة الأولى
1440هـ/ 2019م

دار الحكمة
طباعة - نشر - توزيع

جسور
للنشر والتوزيع

٨١٠ كمال القاضي
ك م ع ت عتبة عبد الكريم/ كمال القاضي.- القاهرة: دار الحكمة، دار جين، ٢٠١٨م.
٩٦، ٢٠سم.
تدمك: - -٧٢٨-٩٧٧-٩٧٨
١- الأدب العربي. أ- العنوان

رقم الإيداع	٢٠١٨/
I.S.B.N	978-977-728- -

إهداء

إلى الأزمات التي صنعتني، فبدونها لم يكن بوسعي أن أكون.

إلى أبنائي، أهداف وبيسان ونضال..

الضوء الذي برق في حياتي وامتد.

كمال القاضي

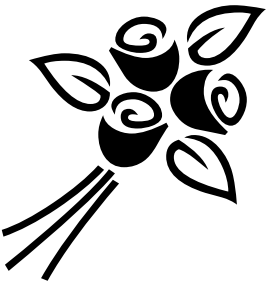

مقدمة

في طفولتي لم أكن واعياً بما تختزنه ذاكرتي من مواقف وأحداث وأمكنه وملامح بعيدة لشخصيات استوطنت وجداني لفترة أو عبرت سريعاً أو ظلت محفورة كنقش على حجر صوان، كل الأشياء تتداخل، لا يميزها غير البراءة المطلقة التي تصلح أن تكون عنواناً لكل المحطات التي يمر بها كائن صغير لم يتجاوز حلمة ركوب الدراجة والذهاب إلى السينما ولعب الكرة دون أن تكون خاتمة المغامرة علقة ساخنة من الأم أو الشقيق الأكبر.

بعد مرور الطفولة الشقية الموشاة باليتم والحرمان زاد النضج تدريجياً وتفتحت العيون وتفتق الذهن عن صور أخرى للحياة أكثر وضوحاً في قسوتها وبؤسها المستتر خلف مظاهر القناعة والحياء والزهد فيما لا نملكه، كانت علاقتنا المبكرة بالعاصمة " القاهرة " هي سر التميز الذي لا نملك سواه فنحن برغم رقة الحال نتمتع بما يشتهيه الآخرون، نلكن القاهرية بإتقان ونسلك سلوكاً متحضراً في الأكل والشرب والمشي والمعاملة ويتميز مظهرنا العام بالنظافة المتناهية والتأنق الشديد، حيث الشعر المغسول بالشامبو والمصفف بعناية.. ننتعل الشباشب الجلد والأحذية اللميع السادة أو المزينة بقطعة نحاسية مصقولة تضوي في الشمس فتخطف العين ويتأكد ثمنها الغالي لمن يفهم في الموضة ويقدر قيمة الملبوسات الثمينة.

لم أتعود وأنا صغير على ارتداء الجلباب كعادة أبناء القرية، المعهود عنهم ارتداء الجلابيب البلدي المقوره أسفل العنق والمفتوحة حتى نهاية القفص الصدري ولها كم واسع أو الأخرى، نصف الياقة ذات الكم الضيق نوعاً ما أو النوع الثالث وهو يخص الكلاسيكيين من أبناء الأفندية والموظفين جلباب بياقة كاملة وكم بأساور كأساور القميص الإفرنجي، كنت متمرداً على الأشكال التقليدية للزى الريفي بحكم إقامتي شبة الدائمة بالقاهرة أحاول تمييز نفسي أو بالأحرى تحرص أمي على تميزي بين أقراني شكلاً ومضموناً، فانا أرتدي القميص والبنطلون في أغلب الأوقات، وألبس البيجاما حين أفرغ من اللعب وأخلد إلى النوم ولا أنس أن أغسل قدماي تنفيذاً للتعليمات التي تصدرها أمي في حسم وأنفذها بمجرد نظره.

كنت الابن الأصغر بين خمسة أشقاء آخرين، ولدان وثلاثة بنات، يطلقون علي آخر العنقود، أبيض البشرة، دقيق الملامح صغير الحجم تميزني وسامه لم أدركها إلا حين بلغت الحلم وصرت ملفتاً للفتيات والنساء اللائي كن يداعباني بنظره موحية أو قرصه خفيفه في الخد تنتفض لها حواسي ويحمر وجهي ويسري في بدني تيار الرغبة فأود لو بادلتهن القرص في خدودهن المستديرات كثمار التفاح الناضجة، لم يمنعني عنهن غير خجلي الفطري وتربيتي الصارمة التي تركت آثارها السلبية فيما بعد على شخصيتي نتيجة خوف أمي الشديد من أن يقول عني الناس أني

تربية امرأة، لاسيما أن أبي مات في الخمسينات من عمرة قبل بلوغي عامي الخامس فصرت منطوياً حذراً أتوقع الخطأ فأجعل نفسي بمنأى عن أي شبهه، هذه الطبيعة التي لازمتني طوال حياتي ومازلت أعاني منها إلى الآن.

فطرة الفلاح البسيط

في أوائل السبعينيات كان أهل قريتنا الصغيرة الكائنة في جنوب مصر بمحافظة أسيوط يعيشون على الفطرة شأنهم شأن كل الريفيين الطيبين في قرى الصعيد ووجه بحري يستيقظون مع طلوع الشمس وينامون بعد غروبها، حيث يؤدون صلاة المغرب جماعة بعد عودتهم من الغيطان وانتهائهم من مباشرة أراضيهم وزراعتهم ومواشيهم، ثم ينتظرون صلاة العشاء لأداء الفرض الأخير من اليوم وبعد ختام الصلاة والتسبيح والدعاء يتوجهون لبيوتهم فيتناولون وجبة العشاء، قطعة من جبن قديم وبعض أعواد الجرجير أو الفجل أو البصل وثمرة طماطم مع العيش البتاو المصنوع من الذرة والمخلوط بقليل من الحلبة المطحونة في خلطة سحرية تقوي المناعة وتمنع الإصابة بمرض السكري وهو يشبه الرقاق إلى حد كبير، تخبزه النساء في القرية بكميات كبيرة ليكفي حاجتهم لفترة طويلة تصل إلى ثلاثة وأربعة أشهر أحياناً، حياة بسيطة قنوعة، هي ذاتها التي غنى لها عبد الوهاب أغنيته الشهيرة محلاها عيشة الفلاح قبل قيام ثورة يوليو في فيلم يوم سعيد أمام ليلى مراد وراقيه إبراهيم، ولم يكن عبد الوهاب مبالغاً فحياة الفلاح في تلك الفترة وما بعدها كانت هادئة وأكثر سعادة واستقراراً برغم الفقر المدقع ولكن بفضل السجايا الطيبة والنوايا الحسنة والفطرة الإنسانية السليمة كان راضياً مطمئناً.

ليس ثمة قضايا كبرى تشغل أهل قريتنا السعيدة سوى الحديث عن مواعيد الري وتنقية الدودة والتخضير والحرث والحصاد وتعديل

الحدود ودق الحديد للتدقيق والفصل بين أرض فلان وأرض علان تفادياً للمشاكل التي تنجم عادة جراء الطمع واستباحة أرض الغير فدون ذلك كل شيء سهل وبسيط، حتى القضايا السياسية لا يلقون لها بالاً اللهم إلا ما يتعلق منها بمصالحهم الشخصية جداً فآخر عهدهم بالسياسة في هذا الشأن قانون الإصلاح الزراعي الذي وزع بموجبه عبد الناصر الأراضي على الفلاحين الأجراء فزرعوا وحصدوا وأكلوا من كدهم وعرقهم وما زرعته أيديهم الخشنة العفية بعد سنوات من الذل والاستعباد على يد الإقطاع الذي أكل صحتهم وأفنى أعمارهم فذهبت حياتهم سدى.

كان جمال عبد الناصر في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات يمثل في وجدان الفلاح المصري، خاصة في الصعيد رمزاً حياً للزعامة والعدالة والمساواة فلا يجرؤ شخص مهما كانت وضعيته وحيثيته أن يتناوله بالنقد أو يشير إليه بنقيصة، ويوم وفاة عبد الناصر خرجت النعوش الرمزية في كل قرية في مواكب مهيبة تودع الزعيم وتنعيه وقد اتشحت النساء بالسواد وأعلنت حالة الحداد العام لمدة أسبوع وفي ذكرى الأربعين تجددت الأحزان وزرفت العيون الدموع الساخنة على وفاة ابن مصر البار وزعيمها الوطني الكبير، وفي مشهد لم ولن يسقط من ذاكرتي رأيت عبد التواب يوسف ابن عمة أمي بقامته الطويلة وعوده النحيل يشق الجيوب ويصرخ وراء النعش الوهمي كطفل فقد أمه وأبية في حادث أليم، وتصورت حينها وكنت في الخامسة من عمري أن الرجل العظيم الذي يقولون أنه مات يرقد في ذلك الصندوق الخشبي الطويل المغطى بالقماش الأسود رمز الحداد.

ذكرتني الصورة الكبيرة التي علقها أبي للرئيس على واجهة البيت منذ إعلان خبر الوفاة في الساعة الخامسة إلا ربع من مساء يوم الوداع الحزين في الثامن عشر من سبتمبر عام 1970 بالموكب الرسمي الذي رأيته في منشية البكري وأنا طفل حين حملني أبي بين ذراعية الطويلين السمراوين لأتمكن من رؤية الشخص المهم وأردد ما لقني إياه هاتفاً بأعلى نبرة من حنجرتي الضعيفة، يحيا الرئيس جمال عبد الناصر، يحيا الرئيس جمال عبد الناصر، يحيا الرئيس جمال عبد الناصر وسط دهشة الجماهير ورجال الحراسة الذين راحوا يداعبونني ويهنئونني لأن الرئيس نظر نحوي بابتسامه ولوح لي بيده وكاد يلمس وجهي بتراطيف أصابعه، بينما أردد كالببغاء ما أملاه علي أبي غير مدرك أنني دخلت التاريخ في نظره ونظر أمي ومن شاهد الموقف من الجماهير الغفيرة التي أحاطت بسيارة ناصر السوداء المكشوفة وهي تسير ببطء شديد، لم يمر هذا المشهد مرور الكرام بل أخذ أبي يرويه لكل من يقابله في فرح شديد وبيقين قاطع أن أصغر أبنائه حظي برؤية زعيم الأمة ولوح له، تذكرت تلك الصورة السينمائية الوثائقية التي رسخت في ذهني وأنا أرى أبي يقف على أصابعه ويمد طوله الفارع إلى أقصى ما يتمكن كي يعلق صورة عبد الناصر في مكان بارز على واجهة البيت لحظة إعلان نبأ الوفاة.

ولم يعش أبي غير سنتين اثنتين بعد رحيل عبد الناصر ولحق به في سبتمبر عام 72 من القرن الماضي، ولم تسدل أمي الستار على الحكاية التاريخية التي كانت تحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب وتستعذب حكيها

كلما سنحت الفرصة في زهو شديد، كانت أمي تعتد بذاتها وأبيها أيما اعتداد ولا تمل من قص الحكايات عن أبيها الرجل الثري متعدد الأملاك وعين أعيان المركز وكيف كان يمر في هيبة ووقار متناهيين على غيطانه راكباً فرسه الأبيض ليتفقد الأحوال ويتابع أداء الأنفار العاملين في حقوله المتجاورة شاسعة المساحات، كانت تصفه بإكبار ولا تنسى وهي تحكي عن مآثره أن تتقمص شخصيته وتستحضر الموقف الذي تروية كأنه يحدث في التو لعمل التأثير الدرامي اللازم لتجبرك على الانتباه للقصة فلا تفوتك تفصيلة واحدة من بطولاته والمواقف الدالة علية، كان لدى أمي ملكة التمثيل فهي موهوبة بالسليقة وعندها فراسة، تستطيع أن تحدد إذا كنت تتصنع الاهتمام بما تحكيه أو تهتم بالفعل وإذا تأكدت أنك تدعي الاهتمام فأنت من المغضوب عليهم إلى يوم الدين ولن تكون محل ثقة بتاتاً، قداسة الأب والأم غير قابلة للمناقشة عند أمي وأنا أرجعها إلى ثقافة جيل كامل تربى على هذا المفهوم، الاحترام لدرجة العبودية للأب والأم، فمن خلال ما كانت ترويه عن هيبة أبوها وعنفوانه كنت أتصوره نموذج من السيد أحمد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ ولكن دون نزواته وانفلاته الأخلاقي وازدواجية شخصيته، الغريب أن أمي لم يكن يعجبها هذا التشبيه ولم ترق لها هذه المقارنة فهي لم تغفر لبطل نجيب محفوظ الذي عرفته من خلال أفلام السينما انحلاله وتربأ بأبيها عنه، فالرجل كان من المصلين الأتقياء الورعين، يبدأ يومه بعد صلاة الفجر حاضر في المسجد البحري الكبير، قبل أن يتوجه للغيط يتناول قالب الذبده الفلاحي مع نصف رغيف شمسي وخمسة بيضات وكوب

حليب ساخن من الحجم الكبير، كان لجدي وجه أبيض مشرب بالحمرة وبنيان متين، يضرب به المثل في القوة والصلابة، غير أنه يتمتع بشخصية قوية نافذة البصيرة ورثتها عنه أمي وعقلية رياضية تجمع وتطرح وتقسم وتضرب دون أن توخطيء في رقم واحد وبرغم أميته كان شديد الذكاء لا يتوقف عقلة عن الحساب والمداولة والمساءلة وهي صفات ومزايا تمتعت بها أمي أيضاً.

في يوم وفاته تم استدعاء الحكومة، ليس لشك في أسباب الوفاة وإنما للسيطرة على ردود أفعال أبنائه وزوجاته فقد كان له أربعة زوجات هن الباقيات على قيد الحياة وقت وفاته وزوجة أخرى توفيت وكان ترتيبها الرابعة فلما توفيت خلا مكانها فتزوج غيرها، أي أن مجموع ما تزوجهن خمسة نساء كانت آخرهن جدتي، سيدة أرستقراطية من عائلة عريقة وقوية، يعيش أخوالها في الإسكندرية، لذا فقد اكتسبت مكانه مرموقة لدى جدي وباتت أميز زوجاته عنده من الناحية العاطفية، وله من الأولاد إحدى عشر ولداً وتسعة بنات هم من عاشوا وتربوا في خيرة وورثوا تركته التي تم تقسيمها بمعرفة المجلس الحسبي الذي جعل أمي وصية على ورث أخواتها الأشقاء بنتان وولد باعتبارها الشقيقة الكبرى، ومن تاريخ الوفاة تحملت أمي المسئولية في سن مبكرة جداً وظلت متحملة إياها إلى أن توفيت عن عمر يناهز 74 عاماً.

أمي

ورثت أمي الكثير من طباع وصفات أبيها، الصرامة والحسم وقوة الشكيمة والشخصية وحرصها الشديد على الأرض وربطها بالعرض فهي الشرف والكرامة والسند وقت الشدة، فمن لا يملك أرض لا يملك ظهر، واحتفظت أمي بالكثير من ميراث أبيها وملكيته التي تفتت بالتوزيع على الورثة الذين بلغ تعدادهم مبلغاً فهم كثرة ولكن مع مرور الأيام كبر الأبناء والأحفاد وأضافوا إلى ملكية جدهم ما يضمن لهم الثراء والحيثية التي كانت للجذر العميق، الجد الذي لا يزال يحظى بذات الهيبة التي كانت له في حياته، حين توفي أبي في أوائل الخمسينات من عمرة خرجت أمي عن تحفظها المعتاد وبدأت تباشر الأرض عبر المستأجرين الذين كانت توكل إليهم مهمة الزراعة والحرث والري والحصاد وفي النهاية يتم التعامل مادياً بنظام الشراكة في المحصول فالنصف لها نظير الملكية والنصف لهم مقابل المتابعة، وهو نظام معمول به عرفياً في القرى لمن تضطره الظروف لذلك، كنت أندهش من صلابة أمي وتصرفها كرجل له خبرة طويلة في المحاسبة والقياسات والكيل والحصاد والري وجمع المحصول فهي تحيط بكل كبيرة وصغيرة تخص أرضها وزراعتها القليلة إلى حد كبير مقارنة بما كان يملكه أبيها في زمام أبو رضوان والعرب وشرق الجسر والتل والبوره وغيرها من مناطق نفوذه وملكيته، لكن لم تستهن أمي بنصيبها من الميراث الموزع في أربع مناطق على أربع قطع، بل على العكس زاد اهتمامها وعنايتها بهم مضافاً إليهم قطعة كبيرة تركها أبي كانت نصيبه من الإصلاح الزراعي أعطاها له

عبد الناصر بعد الثورة فزرعها وأولاها عناية فائقة وكثيراً ما ذهبنا إليها أنا وإخوتي الكبار في مواسم الحصاد التي كانت بمثابة أعياد بالنسبة لنا نحن المتعلمين الصغار، وبعد وفاة أبي كانت أمي توفد أخي الأوسط رؤوف طالب الثانوي في بعض الأحيان ليتابع عن كثب سير العمل ويراقب العاملين في ما يخص الكيل والشيل وخلافة، لكن الحق يقال أن رؤوف لم يكن هاوياً لهذه المسألة على الإطلاق، كان يضيق بتكليفات أمي ويعتبرها مهمة صعبة يؤديها متأففاً فهو المثقف المرتبط بالقراءة والاطلاع، وكثيراً ما حدثت مشاجرات بينهما نتيجة عدم اكتراثه وتهربه من المسئوليات التي تختص بهذا الشأن، ولم يكن يشفع له عندها غير تفوقه الدراسي الواضح ونجاحه كل سنه بترتيب متقدم جداً بين زملاءه، لم تفلح أي من محاولات أمي لربطه أو ربطنا بالأرض، فأنا بحكم صغر سني وسفري المبكر للقاهرة كنت بعيداً عن هذه المشاحنات ولم أذكر أن تم تكليفي بمهمة من هذا النوع اللهم غير بعض الزيارات العابرة للغيط كسائح متجول، كنت أذهب لبعض الوقت لآكل الفول الأخضر "الحيراتي" طازجاً من العيدان مباشرة واستطعمه في نشوه متناهية ولا ما نع من قطف كمية تزن نحو ثلاثة أو أربعة كيلو للبيت ليذوقوا مثلي بشاير الفول فالمعهود لدينا أن نأكل من خير الأرض ما لذ وطاب من ثمار الفول والطماطم وسنابل القمح الخضراء قبل أن تجف وتأخذ لون القمح وهو ما يسمى بالفريك الذي تحشو به أمي الحمام بديلاً عن الأرز لأنه أطعم وألذ فهي طباخة بريمو، ولو كان أيامها برامج الطهي المنتشرة في القنوات الفضائية لاحتلت الصدارة عن جدارة ونافست أكبر الشيفات وأسطوات الطبخ، لم يكن دوري يزيد على

الزيارات القصيرة للغيط بأرض الإصلاح الزراعي المملوكة لأبي والتي آلت ملكيتها بعد وفاته لنا نحن الورثة بطبيعة الحال.

أخي الأكبر رفعت الذي استوطن القاهرة قبل وفاة أبي بسنوات بحكم عملة كان أكثرنا فهماً لطبيعة الأرض والزراعة والفلاحة، كان هاوياً ومحباً للمجال عكسنا أنا ورؤوف، لذا دأبت أمي أن تطلعه على كل كبيرة وصغيرة تخص المشكلات الناجمة عن الاحتكاك بالمستأجرين وتقاعسهم في بعض الأحيان عن دفع الإيجار وإهمالهم في أمور الفلاحة وتنقية الحشائش الطفيلية التي تعطل نمو النباتات الطبيعية المزروعة، قمح أو ذرة أو فول أو برسيم إلى آخر قائمة الأنواع الزراعية التي تناسب البيئة الحارة والتي كانت وزارة الزراعة تفرضها أحياناً على الفلاحين من باب تشجيع المحاصيل الأساسية لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي للاستهلاك، وترهن وزارة الزراعة حصول الفلاح على مستلزماته من السماد والتقاوي والمبيدات باستجابته للأوامر الحكومية وعدم مخالفته بزراعة محصول نوعي آخر، وهناك أساليب للمراقبة والتفتيش لضمان عدم الإخلال بالنظام الزراعي لأن ضمان الكفاية من المحاصيل الأساسية كالقطن والقمح والذرة مسألة أمن قومي، وهذا النظام ظل متبعاً لفترة طويلة في الستينيات والسبعينيات.

بيت العائلة

كانت الإجازات التي ينزلها أخي رفعت قصيرة ومتباعدة، كنا ننتظره أنا وإخوتي رؤوف ورقية وهنيه مثل هلال العيد لأن وجوده بيننا كان يعني تغير نمط الحياة في البيت وكسر رتابة الأيام المتكررة وإدخال البهجة علينا، فأمي تعلن حالة الطوارئ القصوى في المطبخ، تعدد أنواع الأطعمة وتذبح في اليوم الأول دكر بط فنلتف جميعنا حول الطبلية العامرة بأطباق الأرز المفلفل وشوربة لسان العصفور وثلاثة أصناف من خضار الموسم الطازج على الأقل، ولا تنس بوصفها ست بيت ماهره المقبلات، السلاطة الخضراء بمكوناتها المتنوعة، البصل والجرجير والبقدونس وفصين صغيرين من الثوم وفلفل حراق، كل ذلك يمزج بالليمون المعصور وقطرات الخل البسيطة والملح المحوج بالشطة والكمون، طبق سلاطة يعوض عن وجبه غذائية متكاملة العناصر، وبالطبع كان العيش الشمسي الساخن المخبوز لتوه بديلاً لعيش الطابونة المسفوط أو بتعبير أمي المسخوط كونه مسمط وناقص الوزن ويمتلئ قعره بالرمل والزلط، تجلس أمي على شلته تضعها فوق الحصير العبيدان وهو نوع متميز عن الحصير الحلف الشائكة والأرخص ثمناً، وفي المقابل يجلس رفعت وبجواره رؤوف وبجوارهما في دائرة الطبلية تجلس رقية وهنيه متأهبتان للانقضاض على دكر البط الذي رأيناه يمشي وهو مذبوح قبل أن تطلع روحه وسألنا أمي في دهشة عن هذا السر فأجابتنا قائله: هو البط كده روحه عزيزة بعد الذبح.. بتبقى سرقاه السكين!

أما أنا فمكاني في الدائرة المحيطة بالطبلية يكون عادة بجوار ست الحبايب كي أظفر بمناب متميز وبعض الإضافات الأخرى التي توزعها علينا من فائض اللحم الأبيض الشهي لدكر البط المأسوف على شبابه، نأكل أنا ورقية وهنية بشهية ونحن نراقب حديث أمنا الحنون مع رفعت أثناء الأكل عن ما دار خلال الفترة الماضية منذ سفرة وحتى عودته وهي فترة لا تقل عن ثلاثة أشهر ولا تزيد عن خمسة، تحدث أثنائها أحداث كثيرة فلا تعدم أمي الحكايات والموضوعات التي تثير فضول رفعت فيصغي لها باهتمام شديد مدققاً في التفاصيل التي ترويها بشكل سينمائي مراعية التتابع والتسلسل ومواطن القوة والضعف بشكل مؤثر يشد الانتباه ولا يترك فرصة لرفعت للسرحان أو الشرود ولا تفتعل أمي قصة أو تبالغ فيما تقول، فقط تمعن في رواية كل كبيرة وصغيرة عن مشاكلها معنا وبالذات رؤوف الذي كان يشاكسها باستمرار ويتمرد على كل أوامرها فهو في مرحلة المراهقة وعصى على الترويض، استخدمت معه كل وسائل الردع دون جدوى، يسهر رؤوف طوال الليل فانياً بعض الوقت في المذاكرة، بينما يقضي بقية الليل خارج البيت، وفي قرية صغيرة مثل قريتنا تعد هذه التصرفات نشازاً فالناس ينامون من المغرب ومن يسهر من الطلاب ويطول في سهرة لا يتجاوز العاشرة مساءاً، أما رؤوف فلا ينام قبل الثانية صباحاً كل يوم وهذا يسبب قلق شديد لأمي التي ينخلع قلبها كلما سمعت أنباء عن مشاجرة حدثت مساء أمس بين الشباب وضرب أحدهم الآخر بسكين أو شومة، في ذات ليلة من لياليه الساهرة صادف رؤوف فتاة من فتيات القرية الجميلات وهي ذاهبة إلى

بيت أحد أقاربها بثيابها الملونة بألوان زاهية تلفت النظر وقصيرة نسبياً تكشف عن سمانتين ممتلئتين ملفوفتين وتمشي في دلال وخيلاء فهي تعرف تأثير أنوثتها ومواطن فتنتها داخل الجلابية المزركشة القصيرة الضيقة ناحية الصدر المرمري المستدير الذي تكشف عن بياضه فتحة لا تقل عن خمسة سنتمترات تلهب رغبة الناظرين من الشباب الجوعى الذين تخترق نظراتهم الصدر ويجولون بأبصارهم المناطق المثيرة في الجسد الفائر كله، أمعن رؤوف النظر وأطال فيه والتقت عيونه بعيون الفتاة فوصلت رسالته المشفرة، ولم يستطع التحكم في أعصابه فوجه إليها كلمة أوكلمتين من الغزل فكانت الطامة الكبرى، اعتبرت الفتاة هذه الكلمات تعدياً عليها بالقول فما إن وصلت البيت حتى أبلغت شقيقها، الفلاح المعجباني ذو البشرة البيضاء والطول الفارع فخرج يسب ويلعن خالعاً جلبابه البلدي الواسع الذي كان يرتدية فوق الصديرية والبنطلون الأبيض الواسع والفانلة البنية ذات الأكمام الطويلة، منحسر الرأس حافي القدمين متأهباً للاشتباك، دوى صدى هذه المشكلة في الجهة القبلية من البلد ولاكت الألسنة الواقعة لفترة طويلة ولم يصمت رؤوف إزاء الكلام المتناثر والاتهامات الأخلاقية التي وجهت إلية ودافع بشراسة عن نفسه وأخلاقه كإنسان متعلم مشهود له بالتفوق، ولم يرى في جرأته عيب يستحق كل هذه الضجة فهو لم يرتكب جريمة حين عبر عن إعجابه بالفتاة الجميلة المثيرة التي بادلته النظرات واستحسنت إعجابه بها، غير أنها كان لابد أن تفعل ذلك خوفاً من أن يكون أحداً قد لاحظ الموقف فينقله لأهلها بعد أن يضيف من عنده ما يثير الريبة والشك!

بسبب طيش رؤوف وتهوره كانت أمي تزداد قلقاً علية وعلى مستقبلة ولم تكف عن الشكوى منه لرفعت الذي كان يتميز بالاتزان في كل تصرفاته وبعيد كل البعد عن مغامرات الشباب فليس لدية وقت بحكم مشغولياتة ومسئولياته الكثيرة عن بيته وأسرته في القاهرة فهو متزوج وله ابنه صغيره عمرها عامين ويعمل في مؤسسه رسمية بها ضبط وربط وكما يردد دائماً الواحد في الميري مش ملك نفسه، النهاردة في القاهرة بكره في السويس وبعده في البحر الأحمر، لذا كانت أمي دائماً تعذره وتدعو له وإن عتبت عليه نتيجة التقصير في إرسال الخطابات يكون العتاب مغلفاً ورقيقاً.

كانت أمي مشغولة بزواج أختى رقيه والعدل الذي تخشى أن يتأخر برغم انها لم تصل بعد لسن الحرج فهي لم تكمل عامها السادس عشر، وسر القلق أن البنات في تلك الفترة في قريتنا كن يتزوجن في سن أختي، لأن نسبة التعليم محدودة جداً وسترة البنت في بيت زوجها، وأمي لديها ثلاث بنات لم تتزوج منهن غير صفية التي تزوجت ابن عمها، الموظف في القاهرة بإحدى الشركات الكبرى التابعة للمجلس الأعلى للصحافة، وهو ابن رجل من الأعيان وله حيثية معتبرة في وظيفته، ترك البلد بعد المرحلة الإعدادية وألتحق بمدرسة ثانوية بالقاهرة وتخرج في أحد المعاهد العليا لدراسة الإدارة والأعمال المكتبية أواخر الستينيات، تزوج أختي وربطته بنا علاقة نسب متميزة كانت ترتفع فوق صلة القرابة، وللحق فقد كان طيب القلب، ودود حنون يتمتع بطابع إنساني عالي، يأتي

لزيارة البلد في الإجازة الصيفية ومعه أختي وبناته نسرين، وعلياء، تستقر أختي ببناتها معنا في بيتنا، وينام هو في بيت إحدى شقيقاته ومع شروق الشمس يكون بيننا يتناول الإفطار المحترم بعد كوب الحليب الذي شربه في بيت شقيقته، كنا نعيش أجواءً غاية في البهجة طوال فترة الإجازة، فزوج أختي كريم جداً ينفق بسخاء وكثيراً ما أغدق علي بالفلوس، ولا أذكر أنني اشتريت له شيئاً من بقال أو فكهاني وأخذ مني باقي ما أعطاني إياه البائع من ثمن السلعة، تلك كانت طريقته حين يريد أن ينقدني مبلغاً ما لأشتري حلوى أو لعبة أو ما شابه، كان رقيقاً معي إلى أبعد حد، لم أذكر أنه زجرني يوماً أو عكر صفوي قط لأي سبب، ذات يوم أرسلني لأكوي له جاكيت بدله عند مكوجي الرجل في المركز التابعة له قريتنا وهو مدينه تبعد عن القرية بنحو 7 كيلو متر، فركبت حماراً بلجام وبردعه وقطعت الطريق الرئيسي في ساعة الظهيرة وسرت وحدي بثقة دون خوف من أن يحرن مني الحمار فيسقطني من فوقه إذ كان عمري لا يزد على 13 سنه وظللت متشبثاً باللجام، أشده للخلف قليلاً كلما ازدادت سرعة الحمار عن الحد الآمن وشعرت بالقلق منه، وأهويه تدريجياً عندما تقل السرعة وأطمئن، وصلت المركز وذهبت للمكوجي وأعطيته الجاكيت فطلب مني أن أنتظر ساعة حتى يفرغ من كي بعض ملابس الزبائن المتراكمة بجواره فخطرت لي فكرة أن أذهب لأترك الحمار في وكالة الحمير وأجلس على المقهى بعض الوقت كما يفعل الكبار إلى حين انتهاء المكوجي من كي جاكيت البدله الصوف المفتخر، وقد كان، نفذت ما فكرت فيه ومضت الساعة وحاولت العودة لمحل المكوجي فلم أفلح فقد تبخرت ملامح

المكان من ذهني تماماً واختلطت علي الشوارع والمحلات والأشخاص وقضيت ساعات أقطع الشوارع والدروب والأزقة ذهاباً وإياباً وأسأل القاصي والداني عن المكوجي النحيل متوسط الطول مقوس الظهر الذي يرتدي بنطالون رمادي بحملات وقميص كاروه وله وجه معضم وشعر ناعم مصفف وضع عليه فوزلين وزاحه للخلف في عناية فائقة كأنه مرصوص شعره شعره، لم يدلني أحد عليه فكل المكوجية لهم ذات المواصفات تقريباً!

رجعت للوكالة وآخذت الحمار وأعطيت لصاحبتها العجوز خمسة قروش وأنا أرمق ابنها الأبله المعاق ذهنياً بحذر، ركبت الحمار وتشبثت أكثر باللجام بعد أن تأكدت من متانة حزام البردعة وقطعت الطريق في خوف حقيقي وقد ملأني الإحباط والجزع من سوء العاقبة والمصير الذي ينتظرني وأنا أعود بعد كل هذه الساعات بدون الجاكيت!

كرنفالات العزاء

تظهر نوازع الاستعراض الكامنة لدى بعض أقاربي في الجنازات الحارة حين يتوفى أحد من المهمين في العائلة، بسرعة ينتشر خبر الوفاة وتتوافد الأعداد من القاهرة والإسكندرية لأداء واجب العزاء، فمن عاداتنا الإيجابية التي لا تزال سارية حتى الآن الحرص على أداء واجب العزاء مهما كانت الظروف، فالموت هو الشيء الوحيد الذي لا تلتمس فيه الأعذار إلا للظروف القهرية عكس الأفراح التي لا يهتم بها الكثيرين منا وعادة ما يتم الاكتفاء بالتهاني الشفوية عبر التليفون أو التليغراف، أما حالات الوفاة فلا يجوز فيها الأساليب الدبلوماسية والعزاء في حالات كثيرة يكون فرض عين على كل فرد في الأسرة فكل واحد يمثل نفسه وغير مقبول منه مسألة تفويض الغير إلا في حالات نادرة، العزاء يكون مناسبة لفرد العضلات على مستويات كثيرة، فأنت وعائلتك موضوعين في مقارنة ومنافسة مع العائلات الأخرى، إذ يتم التباهي بعدد المعزين ونوعياتهم ومراكزهم، وتقدر هذه المسألة بحجم السرادق وامتداده وفخامته والسيارات المركونة بالقرب منه في تراص يشبه الموقف العمومي، لهذه الأسباب يأخذ العزاء شكلاً كرنفالياً، خاصة بعد انقضاء الساعات الأولى من الدفن، حيث امتصاص الصدمة وانخفاض درجة التوتر، حينئذ تبدأ الاستعدادات، فيتأهب كل واحد لاستقبال المعزين ويرتدي أفخر ما لدية من ثياب، الجلابية الصوف أو الكشمير وتحتها صديرية وجلابية أخرى بوبلين بيضاء تظهر أكمامها المكوية بعناية، وفوق

الرأس طاقية من الصوف ملفوف حولها شال أبيض خفيف وحول الرقبة اللاسه الحرير أو الكوفية غالية الثمن وفي القدم الجورب والحذاء الأسود الملمع، تكتمل الهيئة اللائقة وتبدأ مرحله أخرى تحدث بشكل تلقائي وفق الثقافة العامة للمجتمع القروي، حيث تصطف مجموعه من أهل المتوفى وأقاربه المتميزين في مدخل السرادق للاستقبال وفي تتابع محسوب ومعهود تكون الصفوف متتالية حسب الأهمية، ويحدث تسابق على احتلال المواقع الرئيسة في بعض الأحيان، أما الصفوف الداخلية فتكون مختلطة، وفي كل الأحوال لا تعدم الشخصيات الرئيسة والثانوية وسائل الظهور فتسمع صياحاً هنا وثرثرة هناك على أتفه الأسباب وفي كثير من الأحيان بدون أسباب أصلاً، ومع دخول وفد من المعزين تحدث الجلبة، يلقي كبير العائلة الذي يتقدم الوفد التحية المعتادة، السلام عليكم فتتزاحم الأصوات بالرد، عليكم السلام ورحمة الله، وبالتكرار تضيع الحروف فيكتفي أغلب الناس بنطق الحروف مدغومة فلا يصل إلى أذنك غير سات الله وبركاته، سات الله، يرددها المستقبلون القيام في إجهاد شديد، ويعود الإجهاد إلى طقوس العزاء نفسها التي تحتم القيام والجلوس بشكل آلي كلما دخل نفر من المعزين أو انصرف، ولأن مسألة تناول القهوة السادة ليست ضمن العادات المتأصلة في الصعيد أو في قريتنا على وجه التحديد وغير مسموح بتناول أي مشروبات أخرى غير الماء فالاستمرار على وضع القيام والجلوس لأكثر من 6 ساعات على الأقل طوال اليوم ولمدة ثلاثة أيام متواصلة هي فترة الحداد والعزاء يكون مهلكاً ولكن عليك أن تتحمله في جلد لأن التخاذل أو إبداء الضعف

أو التهرب منه يعد معره ونقيصة تسقطك فوراً من نظر الناس وتسبب حرج بالغ للأهل والعائلة!

طقوس النهار في العزاء تختلف كثيراً عن مراسم الليل الرسمية فالذهاب للسرادق أو الميتم نهاراً ليس تكليفاً بالنسبة للوافدين من القاهرة، فأنت تعامل معاملة خاصة كونك ضيف من ناحية ولأنك على سفر من ناحية أخرى فقد أباح الله عز وجل الصلاة قصر للمسافر لمدة ثلاثة أيام فمن الطبيعي أن لا يفرض العبد على العبد ما ليس بوسعه، فهذه حاله يتم التهاون فيها إلى حد ما فبالإمكان أن يذهب القادم من القاهرة أو الإسكندرية آخر النهار ليكون بين المعزين، ولكنه يدعى للغذاء إذا كان من أهل المتوفى أو وطيد الصلة به لأنه خلال أيام الحداد الثلاثة تتكفل العائلة تماماً بإطعام أهل الميت والمعزين فتأتي صواني الأكل عليها كميات مهوله من الطعام المتميز، لحوم وأطباق خضار وأرز وسلاطات وعيش منطط " مرحرح " أوعيش شمسي، كل هذه المكونات تتواجد على السفرة بوفرة لأن الأعداد من الممكن أن تكون أزيد من المتوقع.. في ساعة الغذاء تعلو الأصوات نسبياً عن المعتاد وهو تغير مبرر في السلوك المتحفظ لأنه يرتبط بمحاولات الضغط من جانب من قدموا الغذاء على الجالسين حول السفرة ليأكلوا بشهية وأن يتحرروا من الخجل فالليل طويل وليس هناك فرصة لأحد أن يختلي بنفسه فيأكل ثانية، ولذلك عليه أن يأكل حتى يشبع، هكذا تكون دعاوى التحفيز على الأكل بشكل ينم عن حساسية ووعي بالظرف الصعب وإحساس نبيل بالمسئولية ولا يخلو

الأمر من كرم أيضاً وإن كان لا يدل على سمه عامه وإنما إن دل فيدل على استثناءات للعائلات العريقة فليس كل عائلة تحدث عندها حالة وفاة تتعامل بهذه المنهجية، ويمكن الجزم بأن هذه العادة ابتدعتها العائلة الكبرى وحذا حذوها بعض من يمتلكون القدرة فقط.

عتبة عبد الكريم

تتوزع الاهتمامات لدى شباب قريتنا الصغيرة الهادئة المسالمة التي تتميز بارتفاع نسبة المتعلمين، بين لعب كرة القدم والجلوس على المقاهي البسيطة الرخيصة التي يديرها بعض المتخصصين ممن جربوا التجارة وذاقوا مكسبها فافتتحوا مقاهي محدودة المساحة، عبارة عن محل ضيق بلا نوافذ به مصطبة أو اثنتين من الأسمنت، يجلس عليها الزبائن مباشرة بدون أي فرش فيلتصقون بها وتتسرب لأبدانهم سخونة الأسمنت في الصيف وصقيع الشتاء القارص، وبرغم معاناتهم الشديدة يطيلون الجلوس في النميمة والثرثرة ولعب الكوتشينة والطاولة والدومينو، يلوكون سير البنات والنساء ويخوضون في الأعراض وينسجون الحكايات والروايات عن الأرملة التي مات زوجها ولا مانع لديها من الزواج والمطلقة سيئة السمعة، وبنت فلان المتعلمة الحاصلة على دبلوم التجارة والمرتبطة بعلاقة عاطفية سرية بأحد أبناء البندر وهكذا يجوبون البلد طولاً وعرضاً مع دوران كبايات الشاي ونفخ دخان الشيشة ودقات قطع الدومينو والسعال المتقطع الذي تنخلع معه صدورهم، مجتمع المقاهي يشذ عنه النخبة المتعلمة التي لا تتناسب ثقافتها مع هذا الجو فالجلوس على المقهى في فترتي السبعينيات والثمانينيات كان فعلاً مشيناً فهو دليل على فساد الأخلاق والبطالة وباب لمسك السيرة، خاصة بالنسبة للمتعلمين من الشباب أو حتى الكبار، ومنعاً للنقد والقيل والقال وحفاظاً على السمعة تتجه الغالبية العظمى إلى لعب كرة القدم كنشاط بديل ورياضة مهمة تستنفد الوقت وتكسر رتابة الواقع

الممل، وهناك فريقين كبيرين، فريق شباب قبلي البلد وهو فريق الهلال، وهؤلاء مجموعه من الطلاب والمثقفين المتحضرين، لا يكتفون بما يحصلونه من دروس ولكنهم يتميزون بحب القراءة والانفتاح على الثقافة ولهم شعبية كبيرة وقليلي النزاع والمشاجرة، من بينهم كباتن حقيقيين، حريفة في الكرة ويتمتعون بلياقة بدنية عالية ويلعبون بنعومة وليس لديهم أية ميول عنيفة، كابتن الفريق جمال عبد البديع، تراه في الملعب حصان سباق أكثر منه لاعب كره، طويل ممشوق القوام، قمحي البشرة،أجعد الشعر، يتحرك في كل الملعب، هجوم وخط وسط ودفاع إن لزم الأمر، يرتدي الشورت الأبيض، والفانلة الحمراء والكاوتش ويلبس ركبه لتحميه من أي إصتطدام بالأرض الصلبة التي كانت يوماً أرض زراعية وتم تبويرها بعد دخولها كاردون المباني فحولها الشباب إلى ملعب لحين بيعها0

جمال يقود الفريق المكون من ستة أفراد فقط لأن المساحة لا تسمح بأكثر من 12 لاعب من الفريقين، له مهارات عاليه تجعله في الصدارة وتعرضه دائماً للخطر فهو مستهدف من لاعبي الفريق الآخر، بقية الفريق متباين في المستوى، رؤوف ويسري وسيد ويونس ومرتضى، جميعهم يمتلكون بعض المهارات ولكنها بالقطع أقل تميزاً، ولهذا ظل جمال يلعب لفترة أطول بكثير منهم وعند بلوغه العام الخامس والثلاثين أعلن الاعتزال وأقيمت مباراة ودية على شرفه بين الهلال والحرية وتم تكريمه بمنحه عدة هدايا ومنها كأس رمزي وكرة موقع عليها من كابتن الفريق المنافس للدلالة على الروح الرياضية العالية ومكانته المرموقة بين جميع اللاعبين.

في المباريات التي كانت تقام بين الهلال وفريق قرية ميور، كان جمال عبد البديع يذهب على رأس فريق مكون من ثمانية لاعبين أساسيين واثنان احتياطي، فالملعب في ميور مصمم بمقاييس رياضية على مساحة أوسع، وبالتالي يكون الجهد أكبر والفرصة المتاحة للمشاركة من أفراد فريق الهلال أكبر أيضاً، ويحسب لهذا اللقاء ألف حساب كأنها مباراة في كأس العالم، حيث الفريق المنافس يتدرب تدريبات مستمرة وينتمي لهيكل شبه حكومي مدعوم مادياً ومعنوياً من جهات رسمية وأهلية، وتظهر الفروق الشاسعة بين استعداد الفريقين من الوهلة الأولى لنزول الملعب، فالفريق المنافس يأخذ طابع الفرق الكبرى، زى موحد، فانلة زرقاء بخطوط بيضاء على الكتفين ورقم مطبوع بالحجم الكبير من الخلف وشورت أبيض ناصع وجورب رياضي طويل أزرق بخطوط بيضاء، وحذاء رياضي أسود مدبب قليلاً من الأمام " فوت بول " هكذا كنا نميزه عن كاوتشات باتا التي كان يلعب بها أعضاء فريقنا الذي يبدو عليه التواضع في المظهر تماماً، ولكنه يعتمد على سمعه كروية طيبه إلى حد كبير ويتسم بأخلاقه الرياضية، يبدأ الماتش في هدوء وبعد الدقائق الأولى تتصاعد عمليات الهجوم من جانب فريق ميور الذي يثقب شبكة فريق الهلال بالهدف الأول فتهتز الأعصاب ويتركز المجهود كله في الدفاع وينتهي الشوط الأول بفوز الفريق الأقوى بالطبع وتبدأ أحاديث اللوم والتقريع بين أعضاء الفريق المهزوم، كل يلقي باللوم على الآخر وتحدث بعض المشاجرات الصغيرة في فترة الاستراحة خارج الملعب، حيث يشتبك كابتن الفريق جمال عبد البديع مع يسري ورؤوف ويتم

تبادل الاتهامات بوجود تقصير في الدفاع وتراخي في منطقة خط الوسط وبدورة يبدي رؤوف تبرماً من تحميل الدفاع المسئولية كلها محاولاً إلقاء التهمة على المهاجمين الذين أضاعوا فرصاً مضمونة لأنهم يهوون المغازلة أمام مرمى الخصم، وإزاء هذا الاتهام يلتزم مرتضى الصمت تماماً لأنه الوحيد الذي يهوى المغازلة ويعرف أنة المعني بهذا الكلام ومن ثم يترفع عن الرد والدخول في مهاترات لا طائل منها غير تعب الأعصاب، ويتفق معه سيد في رد الفعل الصامت لكنه ينتظر لحين انتهاء المباراة ليتناول كل واحد على حده فيشبعه سخرية ونقداً بطريقة كوميدية تحول الهزيمة المخجلة إلى كوميديا ولا ينسى أن يدرج نفسه ضمن المنتقدين ويضحك مع من يضحكون كأن أحداً غيرة هو الذي يتندر ويسخر، أما يونس فهو الأعلى صوتاً يكابر دائماً وينفي عن نفسه أي تقصير ويرى في كل مرة أن يسري هو نقطة الضعف الأساسية في الفريق فيستشيط يسري غضباً ويرد الصاع صاعين ليونس وكل من له نفس الرأي من اللاعبين، وفي الشوط الثاني يكون الأداء عادة أسوأ وتنتهي النتيجة بهزيمة منكرة بعد أن يكون فريق ميور قد ملأ شبكة فريق الهلال أهدافاً من كل شكل ولون، ولكن يبقى الأداء الفردي لكابتن الفريق جمال هو العزاء الوحيد!

أحاديث المصطبة

قبل دخول الكهرباء قريتنا في فترة السبعينيات وما بعدها بقليل، لم يكن هناك وسائل ترفيه غير الراديو وهو وسيلة لا يمتلكها غير الأعيان وعدد قليل من وجهاء القرية ومثقفيها، فالراديو والجورنال هما الوسيلتين الوحيدتين المتاحتين للتسلية ومتابعة الأخبار، وأمام هذا الشح المعرفي والقوقعة داخل محيط القرية الفقيرة كان طبيعياً أن تحل المصطبة محل المسرح والراديو والتليفزيون، حيث حاجة الناس للترفية والمسامرة مسألة فطرية ولابد من خلق المواقف ونسج الحكايات والنكات فعلى المصطبة كل شيء وارد وجميع ألوان القص محتملة، من السياسة إلى الثقافة إلى أحاديث النميمة إلى الأساطير والخرافات، كله حاضر في الأذهان وموجود حسب الطلب والسياق والحالة الراهنة، وللمصطبة زعماء وحكائين ينفردون بالحديث ولا ينازعهم أحد في المقام والتخصص، فليس كل من هب ودب يحكي أو يروي أو يسدي النصائح ويلقن الحكم والأمثال، فالكبار الموهوبين وحدهم المؤهلين لهذا الدور، وهم كالأعلام يشار إليهم بالبنان، الحاج سليم وأبو زين والشيخ مندور، يليهم في السن والخبرة والقدرة، عبد الجواد عبد الرشيد وعمر سند، هؤلاء هم الرواة والزعماء أما دونهم فهم من البطانة أو السميعة العاديين الذين يصغون بكل جوارحهم للحكايات والقصص والأخبار والتي لم تكن تخلو أبداً من أجواء الإثارة والتشويق، حيث تتضمن في كثير من الأحيان الطرائف والخرافات، ولكن قانون الجلوس على المصطبة يقتضي

شروط ومواصفات لا تشملنا نحن الصغار، منها أن تكون في سن النضج، و تتمتع بملكة الإصغاء ولا يحق لك المراجعة والمناقشة فيما يقال وأن تكون طيعاً مستجيباً للأوامر، ولا مانع لديك أن تتطوع بمناولة كوز من الماء لأي من الكبار أو تقوم من مكانك منطلقاً كالرهوان لتشتري علبة سجائر لأحد الجالسين فأنت بحكم سنك الصغير كالأسير لا تملك حق الاعتراض والرفض طالما ارتضيت أن تجلس وتكون ضمن الحاشية أو الكورس، وبالطبع في ظل هذه الشروط القاسية لم يكن لأمثالنا نحن المتعلمون حيزاً بين جماعة المصطبة وروادها و رواتها.

لذا كان علينا البحث عن بديل لخلق فرص اللقاء والحوار والمناقشة في ضوء ما نتمتع به من وعي وثقافة مختلفة إلى حد كبير عن جيل الحكماء والرواة والحكائين الكبار، فكانت عتبة عبد الكريم هي الملاذ الوحيد أمامنا، فهي منصتنا ومنبرنا، وتشهد العتبة العريقة للبيت القديم المكون من طابقين اثنين، فترتين من اليوم، فترة تبدأ من بعد صلاة العصر وفيها يكون أبطال العتبة المصنوعة من الطوب الأحمر وبها طبقه من الأسمنت ملساء كالحرير من كثرة الجلوس عليها، من أولاد العم والأقارب الذين يكبروننا سناً بأعوام قليلة، غير أنهم يبادرون بالجلوس مبكراً لإحساسهم بالاستحقاق لأنهم يسكنون في البيت المقابل لبيت الشيخ الطيب الذي به العتبة، عم عبد الكريم الطبال ومسحراتي القرية، وهؤلاء الشباب يتمتعون بروح اجتماعية وأدب جم وكلهم متعلمون ويحفظون كثير من سور القرآن الكريم فأبوهم شيخ جليل يصلي بالناس

ويبطل مفعول السحر بالرقية الشرعية ويعد واحداً من الزهاد، ولكنه يتمتع في نفس الوقت بأناقة ملحوظة، يحرص على النظافة وطهارة الثياب ويرتدي جلابية بلدي مشغولة بالقيطان وعمه تضفي عليه وقاراً وهيبة، لكنه إذا ما جلس أمام بيته لقراءة القرآن في ساعة العصاري ضاعت فرصتنا في اللقاء اليومي على العتبة، وللشيخ ثلاثة أبناء ذكور أكبرهم يميل للمرح والفكاهة ويحب سماع الراديو والأغاني ولديه ملكة الحفظ، يحفظ تواريخ الميلاد والوفاة ويذكرنا دائماً بالأحداث والمناسبات التي مرت بالقرية خيرها وشرها، وبرغم أنه يدرس في الأزهر إلا أنه ليس له الطبيعة التقليدية لطلبة الأزهر في الكلام والتنميق والمبالغة في التدين، كنت أحبه لأنه يهوى الفن وسير الممثلين ومتابع جيد لحركة السينما وزواج وطلاق الفنانين والفنانات، وسبق وأن قدم دور كوميدي في مسرحية مدرسية عرضت ضمن برنامج الاحتفال بعيد الأم في أواخر السبعينيات وكان اكتشافاً حقيقياً في خفة الظل والتمثيل التلقائي، يونس محمد يونس، هو أكبر أشقائه، له شقيقان، محمد جلال الدين وعبد المنعم، الأول كان طالباً أزهرياً مثالياً له سمة العالم الفقيه، يتحدث بهدوء ووقار متناهيين ولا يشتبك على الإطلاق في أحاديث خلافية، يؤثر دائماً السلامة ويكتفي بالمشاركة الكلامية فيما يعرفه ولا يحب الهزار، بل يترفع عنه خوفاً من أن يؤثر على هيبته وينال من وقاره.

عبد المنعم هو الشقيق الأصغر ليونس ومحمد جلال الدين، كان زميل تخته أكبره أنا ببضعة شهور فقط، وديع هادئ يقع في منزله بين

المنزلتين من طبيعة شقيقيه، فلا هو مهرج ولا هو صامت، بل متفاعل يهوى لعب كرة القدم ويتمتع بمهارات معقولة كدفاع، خفيف الظل نوعاً ما تربطني به صلة قرابة وصداقة، كنت أطلب منه في بعض الأوقات أن يهبني بعضاً من حبات الزيتون المخلل الذي تعتقه والدته سنوياً في تميز تنفرد به عن بقية السيدات الفضليات من عماتي وزوجات أعمامي وحتى أمي ذاتها لم تكن تهوى عملية التخليل العسيرة والمجهدة، كان عبد المنعم يأتي إلينا بقليل من الزيتون المخلل، نأكله كالترمس في تلذذ وانسجام وبرغم حاجتنا للمزيد لا نجرؤ أن نطلب منه نفحات إضافية حتى لا يصدنا وتكون النتيجة الانقطاع الكامل للنفحة فاتحة الشهية.

هؤلاء الأشقاء الثلاثة هم من كانوا يسبقوننا دائما إلى منصة الحديث والحواديت والحكايات المسلية عن البنات ومغامرات الحب والغرام الصبياني، أذكر أنني كتبت قصيدة عاطفية في إحدى الفتيات وكانت تكبرني بعام، حيث كنت في الصف الأول الإعدادي وكانت هي في الصف الثاني وقرأت هذه القصيدة على ابن عمي يونس واندهش كثيراً لقدرتي على التعبير وسألني عن اسم الفتاة المقصودة فلم أجب فقال لي في فضول، هل قرأتها لها؟ فأجبت بالنفي فلم يشأ أن يحرجني ولكنه شجعني على كتابة الشعر وأخذ علي عهد بأن أقرأ له كل ما أكتب من قصائد وعاهدته وظللت وفياً بالعهد لفترة، بعد أن يجلس يونس وشقيقاه على العتبة تبدأ الأفواج في الوفود وتتزاحم الأصوات ويأخذ الحديث شكلاً عاماً عن الكره والأهلي والزمالك وننقسم فريقين، فريق الأهلاوية وأنا

منهم وفريق الزملكاوية وهم الخصوم، نتبارى بالكلام دفاعاً وهجوماً في حماس شديد ونتحمل تبعات الخلاف كأننا من أعضاء الناديين، أنا أدافع عن محمود الخطيب الذي أعتبره مثلي الأعلى في الحرفنه والمهارة وأرتدي فانلته الحمراء برقم 10 المميز وأعدد مزايا زيزو وطاهر الشيخ وأحمد عبد الباقي وشطه ومصطفى عبده وأتكلم عنهم بإكبار شديد، وأهاجم نكاية في الخصوم على خليل ومحمود الخواجة وفاروق جعفر والجوهري وعادل مأمور، وعلى أن أتحمل ما يقوله غيري من الزملاكاويه عن رموز الأهلي وكبار لاعبيه ومن يغضب بسرعة يكون هو المهزوم.

أحياناً كان يصل الخلاف في الرأي حول اللاعبين إلى خصام يمتد إلى يوم ويومين وثلاثة، ولكن سرعان ما ننسى إذا أرسل لنا أحد كباتن النوادي المنافسة مثل نادي الحرية أو نادي ناصر يطلب إقامة مباراة ودية بيننا وبينهم، وبرغم أن كل المبارايات ودية إلا أننا كنا نستخدم هذا التعبير إقتداءً بالنوادي الكبرى كي نشعر بأننا فرقة محترفة لها قيمه ووزن واعتبار، وذات مره أرسل لنا كابتن فريق الحرية سماح مرجان يطلب منا شراء لاعب من اللاعبين الفراودة لدينا وحدد بالاسم لاعباً ما، كان موهوباً بالفعل وأكد لنا سماح مرجان أنه حريص على أن يشتري لاعب من نادي الهلال لأكثر من سبب، أولاً لأن أخلاق لاعبي نادي الهلال عاليه، ثانياً لأن فريقهم في حاجة لدعم في منطقة الهجوم، ولم ينس كابتن سماح التنويه عن قدرات ناديه المالية واستعداده لدفع أي مبلغ، اجتمع أعضاء نادينا لمناقشة الفكرة ودراستها دراسة جيدة، وأثناء الاجتماع

انقسم الأعضاء إلى قسمين، قسم وافق على الفكرة ورأى أنها استثمار للنادي وقسم آخر اعترض بشدة لأن ذلك فيه تفريط في كوادر النادي وزعزعه لمركزة الرياضي، خاصة أن اللاعب المطلوب يعد أمهر لاعبي نادي الهلال وعموده الفقري، وبين الموافقة والاعتراض صاح أحد الجالسين صيحة مدوية، يا جماعة إنتوا مجانين بيع إيه وشراء إيه، أبو الواد لو عرف إن إحنا بعناه حيفتح بطن واحد فينا، ثم إن سماح مرجان إللي جاي يشتري لاعب من عندنا أبوه طارده من البيت وبينام عند أخته بقاله جمعه وواخد سجاير فرط شكك من الحاجة نعيمه ومش قادر يفوت قدام دكانها!.. ضج الجميع بالضحك وفشلت الصفقة.

عدنا لنجتمع على عتبة عبد الكريم ليلاً فشهر رمضان على الأبواب وفي لياليه يحلو السهر والسمر وتزدحم العتبة فهي تسع بالكاد أربعة أفراد فمعظمنا ذو أحجام صغيرة فنحن لا زلنا في طور الطفولة المتأخرة، نلتف حول الكبار ونزاحمهم أحياناً في بعض هواياتهم ونقلدهم في السهر، في رمضان نسهر حتى السحور لنمشي وراء عم عبد الكريم الذي يجوب البلد شارع، شارع ودرب، درب وزقاق، زقاق ويعرف كل بيت من بيوت القرية بالاسم ويحفظ أسماء أكبر الأبناء سناً، فحين يقرع الطبلة نهب واقفين مهللين، نلتف حوله والشاطر منا من يقترب منه ويمسك بيده أو يمشي أمامه لينبهه إلى الحفر وقطع الزجاج المكسورة والمياه المكبوبة أمام العتبات كونه رجل كبير السن ونظرة شحيح، نطوف البلد في جولة يومية ممتعه وكلما اقترب أحدنا من بيته ودعنا وانصرف

لتناول السحور، وفي النهاية لم يكن مع عم عبد الكريم غير عدد قليل من الأطفال وأنا منهم بحكم الميزة الكبرى التي أتمتع بها وهي جواري له في البيت، فبيتنا على نفس الصف في شارع قصير متفرع من شارع آخر ضيق في جهة اليمين، على ناصيته مقهى عم عبد القادر القديم وشبه بوابه واسعة كانت في الماضي تسمى الدورابه، لم أعاصرها ولم أعرف سر تسميتها بهذا الاسم إلى الآن.

حكاوي العفاريت

هناك مجموعه تسمى مجموعة الليل، هم أكبر منا ببضعة سنوات، يجلسون أمام الجامع القبلي، جامع العائلة الذي كان من أوائل المساجد التي بنيت في القرية، يخطب فيه الجمعة كبار المشايخ والوعاظ، سواء كوادر العائلة مثل عمي العمدة، خريج الأزهر الذي صعد المنبر مئات المرات وكانت خطبته ذو مذاق خاص، هادئة رصينة يستقي معلوماتها من أحد الكتب القديمة وله مقدمه مميزة وخاتمه يحفظها المصلين عن ظهر قلب أو عمي الشيخ يوسف، الفقيه في الدين، حافظ القرآن وهو يتميز بخطبه القصيرة جداً ما قل منها ودل، وعادة ما تتكرر خطبه كونه يؤديها من ورقة أيضاً، أما عمي مراد المأذون فله سحر خاص، ينتظر شباب العائلة خطبه على أحر من الجمر فهو معاد للنمطية يعشق الارتجال، لا يحب الميكروفون ويصر على الكلام بالعامية بلهجة أهل القرية، يستخدم نفس مفرداتهم واصطلاحاتهم ويقف على الدرجتين الأوليين من المنبر فهو سمين له كرش بارز، أحمر الوجه وسيم، يبلغ من العمر 50 عاماً تقريباً ولا يوجد في شعره مكاناً لشعره بيضاء شاردة، غير أن له بعض الخصلات البيضاء في مقدمة رأسه أعلى الجبهة تظهر بوضوح برغم قصر شعرة المتناهي، عمي المأذون أو أبو حاتم كما يلقبه الكبار، فيلسوف أكثر منه خطيب جمعه، وصل في التعليم إلى مرحلة الثانوية الأزهرية وله صورة شهيرة بالبدله الكاملة والكرافات، تسلم المأذونية الوراثية في عائلتنا بعد اجتياز الامتحان الصعب في الشريعة والأحكام الفقهية، يتمتع بخفة ظل وقدرة فائقة على السخرية، يتناول عمي في الخطبة قضايا أهل القرية ويسخر من تجاوزات بعضهم صراحة وبشكل

مباشر، بطريقة كوميدية تثير الضحك وتفقد الناس وقارها المعتاد في المسجد فهو يشير إلى وقائع حقيقية ونوادر يعرفها الجميع، ولهذا يضحك الناس أثناء الخطبه دون إحساس بالذنب كأنهم يوافقون على سخريته منهم، وبعد انتهاء الصلاة وخروج المصلين من المسجد تبدأ الأسئلة الفكاهية توجه إليه من عينة، ماذا كنت تقصد بكذا وكذا ومن هو الشخص الذي كنت ترمز إليه بالحكاية التي رويتها أو القصة المكتوبة، وكان عمي مراد يضحك في انتشاء ويمضي إلى بيته مسروراً مخلفاً ورائه الضحكات والقهقهات كرسام كاريكاتير بارع.

مجموعة الليل الجالسة على العتبة العتيقة تتألف من نبيل فريد حكاء القصص والأساطير الميتافيزيقية المثيرة عن العفاريت والجن الذين يراهم وحده دون غيرة ولا يهابهم بالطبع، ومحمد عبد العاطي، الفلاح الذكي المتطلع لصداقة مجموعة الطلاب من العائلة، والمتمتع بلياقة بدنية عالية فهو قوي البنية متين، متوسط الطول، يهوى كرة القدم ولأنه ليس موهوباً فيها ولا يتمتع بأية قدرات تذكر فقد جعل من نفسه حارس مرمى للفريق بدون مناسبة، يتطوع بتقديم نفسه بديلاً لحارس المرمي الأصلي في التقسيمات الودية جداً بيننا وبين أنفسنا، لا يحلو لمحمد عبد العاطي التسخين إلا بعد بداية المباراة بين الثلاث خشبات، فبينما هو منهمك في التسخين تكون الكرة قد استقرت في مرماه المفتوح على البحري، وبالقطع يخرج الفريق المبتلى بعبد العاطي مهزوماً هزيمة منكرة، وفي كل مره تتكرر طريقته وتتكرر الهزائم ولكنه يظل على إصراره بأنه حارس مرمى!

يشاطر محمد عبد العاطي نبيل في موهبة قص الحكايات المختلقة عن العفاريت التي يرونها بعد منتصف الليل وسط الظلام الدامس والسكون المطبق على القرية، حكيا كثيراً عن تلك المرأة التي قابلتهما وطلبت منهما أن يناولاها رغيف العيش الشمسي الملقى على الأرض وحين اقتربا منها وجداها تمتد إلى أعلى بعنقها الطويل المطوق بالكردان الذهبي اللامع ذو القطع المخروطية الكبيرة، وكذلك حكا كل منهما عن الأرانب البيضاء التي تقفز أمامهما كل ليلة في الساحة الواسعة خلف الجامع والناشعة بالمياه الجوفية والنابت فيها الحشائش الطفيلية أو الشيطانية على حد تعبيرهما، كانت تلك الحكايات والأساطير مصدر رعب حقيقي بالنسبة لنا ونحن في مرحلة الطفولة، كنا لا نسمع غيرها من نبيل ومحمد منذ أن يجلسا وحتى ينصرفا تاركين إيانا غارقين في خوفنا مقيدين الخطوات، غير قادرين على الحراك، ولم يكن يبدد الخوف بداخلنا سوى النظر إلى القمر والاستئناس بضوئه لا سيما في ليالي بزوغه، وعادة ما كنا ننتظر أي من أقاربنا الكبار كي يرجعونا بيوتنا، وحين نضمن السلامة ونصل مطمئنين لا نقص شيئاً مما سمعناه على أمهاتنا كي لا يحرمونا من متعة الجلوس على عتبة عبد الكريم وسماع الحواديت والحكايات التي لم تكن كلها مخيفة، فقط كنا نتحاشى الجلوس مع أصدقاء العفاريت نبيل فريد ومحمد عبد العاطي.

في المدرسة الابتدائية

مع أول العام الدراسي أصحو من النجمة، تناديني مرات عمي التي تستيقظ مع صلاة الفجر وتظل بعد أداء الفريضة تدور حول نفسها تجوب البيت طولاً وعرضاً فهي نشيطة نشاطاً استثنائياً، تنادي على بالاسم ثلاث أو أربع مرات فتسمعها أمي فتقوم منتفضة، تقيد الوابور الجاز الصغير الذي يشبه اللعبة وتضع فوقه حلة الماء لتدفئ لي ما يكفي غسيل وجهي ورأسي، ترغي الكثير من الصابون لتضمن وصوله لفروة الرأس فشعري طويل كثيف يحتاج إلى لترين من الماء على الأقل لتنظيفه، أتهيأ تماماً للمدرسة بعد ارتداء البنطالون الأسود والقميص الأبيض والحذاء الأسود الأنيق ذو الكعب العالي والنعل الموريتان الأصلي، أتوجه للمرآة فتنزعج أمي التي تدرك أنني سأفني وقتاً طويلاً في الاطمئنان على مظهري وتسريحة شعري الطويل، تعطيني كوباية الشاي بالحليب وهي تزجرني كي أنتهي من الإعجاب بنفسي وأفرغ لترتيب كتبي وكراساتي والقلم والمسطرة والأستيكة، تتنفس أمي الصعداء حين تسمع صوت زملائي وهم ينادونني من تحت الشباك في تلاحق يدل على العجلة، تودعني وتوصيني بالأدب وعدم المشاجرة مع العيال الشضليه والجلوس في المقعد الأول لكي أرى السبورة بوضوح، أنزل على السلم وهي تلاحقني بالنصائح والتحذير من سوء العقاب لو لم ألتزم بما تقوله، نذهب أنا وبقية الأولاد مشياً على الأقدام مسافة كيلو من البيت إلى المدرسة وقبل أن يضرب الجرس بوقت كاف نكون

في حوش المدرسة في انتظار الطابور، يدق الجرس ونصطف في صفوف منتظمة ونؤدي طقوس الطابور المعتادة يومياً، صفا وانتباه، وأخرج مع ثلاثة من التلاميذ المختارين بعناية لتحية العلم، يكون ترتيبي في المقدمة وأمشي في ثبات متوجهاً إلى العلم وأرفع رأسي إلى أعلي قليلاً وبيدي اليمنى أودي التحية مردداً في حماس وإحساس حقيقي بالرهبة والهيبة، تحيا جمهورية مصر العربية، تحيا جمهورية مصر العربية، تحيا جمهورية مصر العربية، على إيقاع الطبلة الكبيرة التي يقرعها أكبر التلامذة حجماً نسير خطوه معتادة ونحن ندق الأرض بأقدامنا الصغيرة كأننا جنود مرددين نشيد واللا زمان يا سلاحي \ اشتقت لك في كفاحي \ انطق وقول أنا صاحي ياحرب واللا زمان، كانت تغمرني فرحه كبيرة وأنا أردد النشيد، وحين تغير النشيد إلى بلادي، بلادي \ لك حبي وفؤادي شعرت أن شيئاً ما قد تغير مع النشيد، شيء أكبر مني لا أعيه ولا أفهمه ولكني أحسه، تعودت على النشيد الجديد وصرت أردده بنفس الحماس الذي كان، مع هذه الميزة الكبرى كانت هناك ميزة أخرى إضافية وهي كلمة الصباح، كنت أتناوب عليها أنا وعدد من التلاميذ المتفوقين في اللغة العربية، والحقيقة أنني بقدر حبي للغة العربية وتفوقي الواضح فيها، وخاصة الإنشاء كنت بليداً جداً في الحساب، أمقته وأرى العذاب ألوان في حصته وكما كان مدرسين اللغة العربية يحبونني ويشجعونني، كان مدرسين الحساب والهندسة يكرهونني ويعاملونني بإهمال ولم يكن يعصمني من عقابهم الشديد وعصاهم الغليظة إلا أدبي وهدوئي الزائدين عن الحد في حصصهم طوال السنة!

كنت مدللاً من بعض المدرسين إلى الحد الذي يثير غيرة أقراني من تلاميذ المرحلة، أجلس في المقعد الأول في الصف الوسطاني، يداعبني الأساتذة في ود حقيقي ويسمحون لي بممارسة هواية الرسم على السبورة في الحصص الاحتياطي، وأحياناً كانوا يطلبون مني غناء بعض أغنيات عبد الحليم حافظ ويضحكون وأنا أتقمص شخصيته وهو يتمايل في اندماج وإحساس متناهي الرهافة باللحن، فور أن أنتهي من الغناء وأخرج من حالة التقمص وتسبيل العينين تشتعل كفوف التلاميذ الصغيرة بالتصفيق بعد أن يتلقوا الإشارة من الأستاذ، ذات مرة قابل الأستاذ مختار عدلي مدرس التربية الرياضية أخي رؤوف فأخبره بما لم أكن أتوقعه، فقد قال له أن شقيقك الصغير يحتاج إلى رعاية فأنزعج رؤوف ولكن قبل أن يسأله عن طبيعة الرعاية التي أحتاجها أردف الأستاذ مختار قائلاً: لازم تهتموا بموهبته، أخوك صوته حلو ويتمتع بخصال ينفرد بها دون زملائه، هادئ ووديع ومرهف المشاعر ويتصرف كما الكبار في كل شيء، لم أره يتصرف بهمجية أو يشتم أحداً بألفاظ نابية، دائماً عاكف على الرسم ويدندن بصوت جميل \ أرجوكم اهتموا به.

كان أصدقائي المقربين في الفصل، ماجد صديق عزيز بباوي وصبحي جورجي وصفوت فوزي يعقوب وناجي رشدي سوريال وصلاح جميل سوريال، كلهم يسكنون في عزبة الكداونه، عزبة تقع في الجانب البحري من البلد، لها بوابه كبيرة وعتيقة تظل مفتوحة طوال النهار وتغلق من بعد الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل بساعة،

بيوت أصدقائي وزملائي المسيحيين موزعه على مساحات كبيرة داخل العزبة وكثيراً ما دخلتها في أيام الدراسة، حيث كنت أحد أعضاء مجموعة درس الحساب الخصوصي الذي كان الأستاذ روفائيل يعطينا إياه في بيت ماجد صديق، ماجد تلميذ شاطر، وديع، وسيم، حسن المظهر والخلق لذا كانت أمي لا تمانع من مخالطتي له والذهاب لبيته، بالعكس كانت تشجع هذه العلاقة على أمل أن أتأثر به في المذاكرة ويتحسن مستوايا في الحساب، عقدة حياتي الأزلية في جميع المراحل الدراسية، من أولى ابتدائي وحتى الصف الأول الثانوي لأني في الصف الثاني التحقت بالقسم الأدبي وودعت بؤس الرياضة بكل فروعها، حساب المثلثات والجبر والهندسة وكان القسم الأدبي هو الملاذ الوحيد للهروب من هذا الجحيم الذي ظللت مسجوناً فيه سنوات طويلة.

في إجازة صيف السنة الخامسة بالمرحلة الابتدائية سافرت إلى القاهرة كالعادة لقضاء الإجازة هناك مع أسرة أخي رفعت، حيث تغيير الجو الريفي والخروج من الرتابة والنمطية، كنت أتمتع بصداقات كثيرة في الشارع والمنطقة تسمح لي بالخروج مع صحبة من الأولاد، نذهب لنستأجر الدراجات الصغيرة، الساعة بجنية، كنت لا أزيد عن النصف ساعة وأحياناً ربع ساعة فقط، ألف في الشوارع القريبة من البيت وأذهب لأول ألشارع الرئيسي، حيث تسير السيارات والتاكسيات والأتوبيسات، وكنت أقود الدراجة وأنا مرتجف خوفاً من يصادفني أخي رفعت أثناء عودته من الشغل في الساعة الخامسة إلا ربع بعد الظهر، وكنت في أحيان

كثيرة أتحاشى هذا الموعد، مصدر خوف آخر كان يتمثل في أن تراني أختي الكبرى صفية التي تسكن في عمارة كبيرة تطل على الشارع الرئيسي من البلكونة أثناء قيامها بنشر الغسيل أو تنفيض المراتب أو السجاجيد، كل هذه الهواجس كانت تعكر صفو الرحلة القصيرة الممتعة بالدراجة ولكن حب المغامرة كان يتغلب على كل المخاوف، تنتهي النصف ساعة الإيجار ونسلم الدراجات أنا وأصدقائي، روماني وحمدي كوكو وسيد عزام وبحيري الصغير وحسين النحيف، وقبل أن ننصرف نكون قد اتفقنا على فسحة اليوم الثاني، الذهاب إلى شبرا المظلات لدخول سينما مودرن لمشاهدة أحدث فيلم معروض بها، وفي اليوم الثاني أجدني وحدي المتحمس للذهاب للسينما فالكل سحب كلامه وتبخر اتفاق الأمس، حمدي كوكو كان الأجرأ من بين كل المجموعة، لذا كثيراً ما كان يصاحبني في معظم المغامرات، لكنه كان يتكلم كثيراً عن أخته الكبرى كوكو التي كانت تحب هاني شاكر لدرجة العشق فيثير فضولي، وذات مرة مرضت كوكو وكان هاني شاكر يشارك في حفل غنائي يذاع على القناة الخامسة، وهي القناة الأولى حالياً، ولم يكن لدى بيت حمدي وشقيقته تليفزيون، أو بمعنى أصح لم يكن في العمارة كلها غير تليفزيون واحد هو تليفزيون أخي رفعت، تتجمع حوله أعداد من سكان العمارة في الحفلات الشهرية التي كان التليفزيون ينقلها على الهواء مباشرة ليرى ويسمع عبد الحليم حافظ وصباح وفريد الأطرش وعايدة الشاعر وليلى نظمي وهاني شاكر الذي تحبه كوكو، فور سماع نبأ مشاركة المطرب الوسيم في الحفل تحاملت كوكو على نفسها وجاءت لترى وتستمتع بهاني شاكر حبها

الوحيد، كوكو كانت قمحية جميلة الملامح والقسمات، لها جسم فائر، كنت وأنا في مرحلة المراهقة أراقبها من بعيد وأمعن النظر في مواطن فتنتها التي لا تخفيها الملابس بل تزيدها إثارة وفتنة على فتنتها، لكوكو التي لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها شعر أسود طويل وقوام ملفوف مائل قليلاً إلى السمنة، ونهدين مستديرين وساقين ملفوفين بعناية ربانية وقدمين صغيرين تزينهما بطلاء الأظافر، كان لها طله وكاريزما وحضور طاغي فحين دخلت إلى شقة أخي وقف معظم الحاضرين بشكل تلقائي وحيوها بحفاوة وبالقطع أمطروها بعبارات ودوده وأمنيات السلامة.

انقضت إجازة الثلاثة شهور الصيفية سريعاً جداً وكما أنا دائماً في كل مرة ظللت أنعي هم السفر للبلد وأعقد المقارنات بين الحياة في القاهرة بكل متعها من أكل شهي وخروج وفسح وتليفزيون وسينما وركوب الدراجات مع الأصدقاء المختارين ونور الكهرباء ومية الحنفية والدش والبانيو والشامبو والشوارع المرصوفة والعمارات العالية والحدائق والمتاحف وغيرها، وغيرها من مظاهر المدنية المفتقدة في الريف، حيث الثبات والتكرار والظلام الدامس من بعد آذان المغرب والنوم كالفراخ مع غروب الشمس، هذا بالإضافة إلى المشاكل اليومية بسبب الإهمال في المذاكرة وعدم الالتزام بالأوامر التي تصدرها أمي في صرامة متناهية ولا تقبل أية أعذار في أي قصور، كان يوم السفر هو يوم الموت بالنسبة لي، وأشد ما كنت أكرهه أن يأتي أحد من البلد في زيارة قصيرة لأخي رفعت لأن هذا كان يعني أنني سأسافر معه وهي فرصة ثمينة يستغلها رفعت

لترحيلي مع شخص يطمئن علي معه في رحلة السفر الشاقة والمضنية ولا يوجد مبرر لدي لرفض السفر فقد انقضت الإجازة والدراسة على الأبواب وأمي في انتظاري على أحر من الجمر، جربت أن أهرب مرات كثيرة من هذا الفخ، فخ الترحيل المفاجئ بالذهاب إلى أختي صفية التي تسكن على أول الشارع الرئيسي فهي لا تسألني عن السفر إطلاقاً وكذلك زوجها ابن عمي، الأستاذ أمجد زكريا لا يهتم، ومن ثم فالهروب إلى أختي الكبرى صفية كان المأمن الوحيد من الورطة التي تنزل علي كالصاعقة في كل مرة وللأسف تكون نتيجتها السفر الفعلي أو الترحيل كما أسلفت.

الفاجعة

مابين محاولات هروبي الفاشلة من السفر القسري والرغبة في البقاء بالقاهرة ولو ليوم واحد إضافي والتوسل إلى الله ليعفيني من السفر مع الزائر الذي هبط على بيت شقيقي فجأة، جاء الخبر الفاجع الذي غير كل الترتيبات وقلب كل الموازين رأساً على عقب، حدث ما لم يخطر لي على بال، الخبر الصادم يقول: إن ابن عمي الذي يصغرني بعام واحد غرقت به السيارة البيجو التي كان يستقلها مع شقيقة الأكبر وهو قادم لأول مرة في حياته إلى القاهرة ليقضي الأسبوع الأخير من إجازة نهاية العام الدراسي مكافأة له على النجاح الباهر من شقيقة الذي جاء من إحدى دول النفط، وقع الخبر المشئوم علينا كالزلزال فهزنا هزاً عنيفاً وبالطبع هرعنا جميعاً، أخي وزوجته وأولاده الصغار وأنا وشقيقتي صفية وزوجها وأولادهم وأولاد عمي الأخريين وأسرهم إلى البلد، نقلتنا سيارة مخصوص سبعه راكب إلى البلد، وفي الطريق تداعت كل ذكرياتي مع ابن عمي المتوفى الذي كان يصغرني بعام واحد واستغرقت في الحزن والتفكير لمدة 6 ساعات مروا علينا كأنهم دهراً، تذكرت حين كلف عمي أحد السباحين المهرة بتعليمنا السباحة، وكيف تعلمت أنا العوم في زمن قياسي، بينما لم تفلح كل محاولات السباح العجوز مع أمجد الذي كان مكتوباً عليه أن يموت صغيراً وهو لم يبلغ الحلم بعد، مات بريئاً ناعماً بخصاله الطيبة، الأدب الجم والخلق الكريم، كان نابغة في سنوات الدراسة الابتدائية، متفوقاً إلى الحد الذي يثير الغبطة، وأشد ما أثر في وترك حزناً عميقاً

بداخلي أنه لم يحقق حلمه بزيارة القاهرة ومشاهدة الأهرامات الثلاثة وأبو الهول وحديقة الحيوان، تلك المزارات التي طالما حكيت له عنها وأثرت فضوله بها، في اليوم الذي سافر فيه علق أمجد في غرفته الآية القرآنية يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فأدخلي في عبادي وأدخلي جنتي، علقها البريء المسافر إلى رحاب ربه وجنات خلده وأوصى أمه وامرأة عمه وهي أمه الثانية التي ربته بأن لا يقربان الآية ولا يحاولان نزعها من الحائط، وبالفعل ظلت الآية الكريمة معلقة لفترة طويلة جداً قبل أن يكبر شقيقة الصغير طارق ويشرع في ترميم البيت وتجديدة ليكون مناسباً لزواجه، حكيت لطارق شقيق أمجد هذه الحكاية مراراً فقد كان صغيراً جداً حين مات شقيقة غريقاً ولم تسجل ذاكرته شيئا من ملامحه، لا لونه الخمري ولا طوله الفارع ولا بنيانه المتين ولا شعرة الأسود المجعد ولا ذكائه الحاد.

ظللت فترة طويلة أعاني من الوحدة والاكتئاب وأتذكر كلمات أمجد ترن في أذني كلما مررت على مكان ذهبنا إليه سوياً أو صادفني موقف ما يشبه مواقف كثيرة عشتها معه، كنت أعزي نفسي بمقابلة أصدقائه، عصمت منير حنا وأبو العيون جابر وجمال خلف.. وصلنا من القاهرة إلى البلد في ساعة متأخرة من الليل، كان الظلام حالك والوجوه مكفهرة حزينة، ارتميت فوق كنبة بلدي وغرقت في نوم عميق وجاءني طيفه في المنام بملابسه التقليدية التي أحفظها عن ظهر قلب، بنطالون رمادي بجيوب من الخلف وقميص أبيض، يمسك أمجد في يده قلم ومسطرة

وبضعة أوراق مكتوب عليها بالحبر الجاف وبخط يده كلمات لم أفسر منها غير كلمة واحدة " أنا "، أعطاني إياهم ومضى، صحوت من نومي فرحاً لأني رأيته وتصورت أن موته كان كابوساً استفقت منه، بينما سأراه بعد قليل لنذهب سوياً خلف الجامع القبلي لنقابل الصبية من أصدقائنا المشتركين، لكن شيئاً من الذي دار في رأسي لم يتحقق، وسمعت صوتاً يصرخ من بعيد صاحبك مات يا عبد الرحمن صاحبك مات وأنشطر قلبي نصفين فقد أدركت أن ابن عمي وصديقي ورفيق دربي ذهب بلا رجعه.

سماح جميل سمعان

كان سماح جميل من نوابغ المدرسة في المرحلة الابتدائية، ما إن يدخل مدرس جديد الفصل إلا ويلفت نظرة ذلك التلميذ الوسيم الأشقر ذو العينان الزرقاوان، مهذب رقيق له نظره ساهمة، قليل الكلام، كثيراً ما كان يستفزني هدوءه ولكني كنت أحرص على مصادقته كونه من الشطار البارزين ومن الطبيعي أن أحسب على جماعة الشطار وأنا معه ولو مجازاً، لا سيما أنني لا أعدم التفوق تماماً ولكني أقف في المنطقة الوسطى بحكم تفوقي في بعض المواد وضعفي في البعض الآخر، لذا كانت مخالطتي لوجهاء الفصل ونوابغه أمراً ليس مستغرباً، سماح ابن عم ناجي شادي وناجي كان أحد المقربين مني وبالتالي كان هو العامل المشترك بيني وبين ابن عمه ويتميز ناجي ببعض المرونة ولأننا في مستوى دراسي واحد كانت علاقتي به أكثر حميمية وإن كنت آخذ عليه أحياناً بعض صفات الجبن الطفولي وعدم المواجه فهو يؤثر السلامة دائماً في أي مشكلة أو خلاف بيننا وبين بعض زملاء الفصل الأشقياء، حين تحدث مشكلة معه على مقعد أو مسطرة أو أستيكة أو أزمة بسبب درجات امتحان الشهر الضعيفة التي يعايره بها أحد هؤلاء المشاغبين أنبري أنا في الدفاع عنه بينما يهرب هو ويتركني وحدي في مواجهة حزمة من الأشرار، وبرغم ذلك لم أقطع علاقتي به وظلت علاقتنا قوية إلى نهاية سنوات الدراسة الابتدائية وحصولنا على شهادة القبول، أما سمح جميل فهو انطوائي بطبيعته، شديد الخجل وربما جاءت انطوائيته من عدوانية

بعض الزملاء الذين كانوا يحقدون عليه لوسامته وحسن مظهرة وأناقته الواضحة، زرت سماح مرة واحدة في بيته الواقع بحري البلد على بعد مسافة قصيرة من عزبة كدواني واستنتجت أسباب تميزه فهو الابن الأكبر وحيلة أمه وأبية، يتكون بيتهم من عدة غرف واسعة وبهو كبير، له حجرة خاصة به يذاكر فيها دروسه ويقابل أصدقائه، يوجد في الحجرة مكتب صغير ودولاب للكتب وكرسيين وشماعة حائط ومصباح كيروسين من النوع الجيد تصدر عنه إضاءة قوية تختلف عن ضوء اللمبة نمرة عشرة الموجودة في معظم بيوت القرية، أذكر أنني أمضيت معه وقتاً قصيراً كان كافياً بالكاد لتناول كوب الشاي الذي قدمته لي أمة بابتسامة رقيقة لا أنساها وكلمات ترحيب بسيطة، أخذت بعدها الكتاب الذي ذهبت من أجلة ورجعت البيت ممتناً من مشاعر الود والألفة وابتسامة الأم المشجعة على تكرار الزيارة لكني لم أكررها، وفي إجازة الصيف سافرت كالعادة إلى القاهرة لأستمتع بشهور العطلة السنوية مع أصدقائي في شارع أحمد مرزوق بمدينة عرفات بالحي الشعبي العريق وعدت إلى ركوب الدراجات والخروج إلى الشارع الرئيسي وقد اكتسبت جرأة وخبرة في القيادة وعرفت الدروب والأزقة ولم أعد مهدداً بأن يصادفني أخي رفعت في الطريق أو تراني أختي صفية من البلكونه فقد تعلمت فنون المناورة والزوغان وازدادت ثقتي بنفسي كثيراً عن العام الماضي، وبالقطع كان حمدي كوكو هو رفيقي في كل الرحلات السرية ومغامرات اللعب خارج منطقتنا، غير أن الأمر تطور بي فكنت أذهب إلى السينما خلسة في حفلات الظهيرة لأشاهد أفلام بروسلي، بطل الكراتية والكونغو فو،

الخارق الذي كنت أتتبع أخباره وحزنت أشد الحزن عندما عرفت أن هذا البطل السينمائي والرياضي الكبير مات بمؤامرة، حيث تأمر عليه بعض المنافسين وقتلوه ودفن بنظارته البيرسون الشهيرة، حكاية كان يروي تفاصيلها من يكبرونا سناً من رواد سينما الزيتون وسينما النهضة الصيفية المواظبين على مشاهدة أفلام بروسلي أسبوعياً، وفي مرة ذهبت لمشاهدة فيلم جديد للنجم العالمي الكبير وبعد أن قطعت تذكرة صالة بخمسة عشر قرشاً تنامت إلي علمنا أنباء عن تغيير الفيلم بفيلم آخر هندي وصدمت صدمة كبيرة ولكني لم أستطع مغادرة السينما لأن في هذه الحال أكون قد خسرت ثمن التذكرة دون جدوى وحرمت من معايشة الجو السينمائي الذي أغامر من أجلة، وسلمت أمري لله وقبلت بالأمر الواقع وانتظرت عرض الفيلم الجديد وانطفأت أنوار الصالة وبدأت الأحداث بعد نهاية التتر المكتوب باللغة الأجنبية فإذا بي أجد البطل فيلاً بزلومه وامتعضت امتعاضاً شديداً وصرت أفكر في ثمن التذكرة الذي ضاع هباءً والمشوار الذي سوف أمشية في رحلة العودة والإجابات التي علي أن أحضرها للرد على الأسئلة التي تنتظرني في البيت، وتداعت في ذهني كل الأشياء التي لم أكن احسب لها حساباً في غمرة النشوة بفيلم بروسلي، وبينما أحاول طرد الوساوس وأسباب القلق شدتني الصورة وأخذت بعقلي مشاهد الأكشن في المعركة التي خاضها الفيل مع صديقة ضد الأشرار وأخذت في المتابعة بكل حواسي وكنت أصفق بحرارة للفيل الذي يتفانى من أجل الدفاع عن صديقة البطل المغامر، وبعد الفرحة بالنصر جاءت النهاية بقسوتها، حيث قتل الفيل بسهم غادر من العصابة

وسقط الفيل النبيل الطيب على الأرض ولاذت الصالة بالصمت وعم إحساس بالكآبة، بينما لم أستطع أنا السيطرة على مشاعري فقد غلبتني دموعي وصرت أبكي في تأثر بالغ بالنهاية التراجيدية المؤلمة.

العودة للمدرسة

انتهت إجازة الصيف كاملة في القاهرة بعد الخروج والفسح والجولات اليومية لوسط البلد والاستمتاع بالفرجة على المحلات والسينمات بالشوارع الرئيسية والفرعية، عماد الدين وقصر النيل وشريف وعبد الخالق ثروت وعدلي وجواد حسني ونجيب الريحاني وسليمان الحلي وغيرها من الأماكن الشهيرة التي حفظتها عن ظهر قلب وقطعتها طولاً وعرضاً وأنا لا أزال في سن صغيرة جداً، سافرت إلى البلد لأبدأ العام الدراسي، حيث الروتين اليومي السخيف، الاستيقاظ المبكر قبل السابعة صباحاً والمذاكرة والدروس، رجعت رغم أنفي فلا مناص من العودة الجبرية والالتزام القهري بالثوابت المتكررة طوال العام الدراسي الذي كان يمر ببطء شديد فاليوم منه بسنه من أيام القاهرة ولياليها الساهرة الجميلة، ذهبت في اليوم الأول للمدرسة وتم توزيعنا على الفصول كالعادة بعد طابور الصباح، سارعت لأحجز لنفسي مقعداً أمامياً بالصف " الوسطاني " الذي اعتدت الجلوس فيه، وتمكنت بالفعل من إنجاز المهمة برغم التزاحم الشديد وقوة الدفع الهائلة للتلاميذ الأشداء، هدأت الضجة بعد استقرار كل منا في مقعدة وبدأت طقوس السلام والتعارف على الوجوه الجديدة ولاحظت شيئاً ما غير عادي على وجه ناجي شادي الذي بدا مكتئباً وحزيناً فحاولت الاستفسار منه عن هذه الحالة ولكنه لاذ بالصمت ولم يجب عن أي سؤال وجهته له، وتذكرت سماح جميل سمعان الذي لم أره في الطابور ولم ألمحة بين الصفوف ولا

أجد له أثراً في الفصل، وعلى الفور سألته بشكل مباشر أمال سماح فين يا ناجي؟ فنظر لي نظره عميقة بها كثير من الاندهاش والحزن فكررت السؤال مره أخرى باهتمام مضاعف فما كان منه إلا أن يجيبني فيزلزل الأرض من تحت أقدامي، سماح مات.. مات محروقاً، لقد اشتعلت فيه النيران ولم يستطع أحد إنقاذه بعد أن طالت الحروق كل جسمه.

كانت هذه هي الصدمة الثانية بعد وفاة ابن عمي وصديقي غريقاً، تأثرت كثيراً وشعرت بحالة من البؤس والاكتئاب ولكن بمرور الوقت خفت الآلام وتباعدت المسافة الزمنية بيني وبين المأساة وتعودت على الواقع الجديد بدون الصديقين الفقيدين، وقبل امتحان القبول سحب بعض الزملاء أوراقهم والتحقوا بالإعدادي الأزهري في المعهد الديني بالمركز الذي يبعد عن القرية مسافة سبعة كيلو مترات، وقد راودتني الفكرة كصبي صغير ينشد التغيير ويطمح في الخروج من روتين المدرسة والقرية الصغيرة إلى حياة المدينة ونوعية مختلفة من الطلاب، وقد طلبت من عمي الذي سحب أوراق ابنه وقدمها في المعهد متجاوزاً امتحان القبول بالصعود مباشرة إلى الصف الإعدادي حسب النظام التعليمي الذي كان مطبقاً آن ذاك، لم يشجعني عمي على هذه الخطوة خوفاً من اعتراضات أمي، وبمبادرة شخصية تشجعت وفاتحت أخي رفعت في هذا الأمر فلم يرحب بالفكرة متعللاً بأن التعليم العام أسهل وأليق بالنسبة لي ولكي يؤثر علي أشار إلي أنني إذا حولت أوراقي للأزهر فلن أرتدي الزى الإفرنجي وسوف التزم جبراً بارتداء الزى الأزهري،

الجبة والعمة والقفطان فتراجعت على الفور لأني لم أتصور نفسي طالباً صغيراً بهيئة الشيخ الكبير، وبالقطع كان ذلك حكماً قاصراً لصبي قاصر في مثل سني يهتم بالمظهر أكثر من الاهتمام بالمضمون، ذهب ابن عمي مجدي، صديق طفولتي وزميل دراستي إلى المعهد الديني وارتدى الزى التقليدي وأشترى دراجة لتعينه على المشوار اليومي وتعفيه من ركوب سيارات الأجرة المكشوفة في زمهرير البرد كل صباح، بينما بقيت أنا وحيداً فريداً أحاول التكيف مع من معي من زملاء الفصل والمدرسة، وأكثر ما كان يثير غبطتي تجاه ابن عمي مجدي تلك الدراجة التي اشتراها وأصبح يملكها وبإمكانه ركوبها وقتما يشاء، وكثيراً ما كنت ألح عليه في أن يتركها لي بعض الوقت ولكنه كان قليلاً ما يسمح لي بذلك برغم قربنا الشديد من بعض وصداقتنا القوية التي استمرت سنوات لأني من وجهة نظرة لم أحترف بعد قيادة الدراجات بالمستوى الذي يجعله مطمئناً علي وعلى الدراجة.

مفترق الطرق

كبرنا وتفرقت بنا السبل أنا وزملائي ومضى كل منا في طريق، ظللت أنا في التعليم العام وحصلت على الشهادة الابتدائية بمجموع مرتفع نسبياً، ذهبت منتشياً إلي البيت تغمرني الفرحة وفور وصولي احتضنتني أمي وقبلت وجنتي وأطلقت زغرودة مدوية ملأت فراغ حياتنا ولم يكن معهوداً عن أمي أن تخرج عن تحفظها لأي سبب ولكن فرحتها بي أنستها همومها فأنا ابنها الصغير الذي تخشى عليه من كل شيء وأي شيء، وفي آخر النهار جاء إلى البيت مدرس الرياضيات الأستاذ روفائيل ليهنئ ويبارك ويشرب الشربات ويتباهى بتلميذة الذي أفنى معه مجهوداً مضنياً ووقتاً ثميناً، جاءت إجازة الصيف ولم أكذب خبراً ففي أول أسبوع منها سافرت إلى القاهرة، وطني وموطني وعشقي، استقبلني أخي رفعت الذي علم بنبأ النجاح من شقيقي رؤو ف قبل وصولي بخطاب مسجل، وفي اللحظة الأولى من استقباله لي أهداني ساعة جوفيال مستديرة بمينا بيضاء، وضعتها في يدي وصرت أنظر إليها في انبهار وفرحة لم أستطع إخفائها وظللت لعدة أيام أقارن بينها وبين كل الساعات التي أراها، قبل شهر لحق بي رؤوف واجتمعنا سوياً وذكرته بوعده الذي قطعه على نفسه بأن يأخذني للمتحف الزراعي وحديقة الحيوان والأهرامات الثلاثة، لكنه أجل مسألة التنزه لما بعد عرضي على طبيب الغدد لملاحظته قلة وزني ونحافتي ولم يكذب خبراً ففي اليوم الثاني لوصولي اصطحبني لعيادة الطبيب بباب اللوق في عمارة فخمة بجوار حلواني عبد الهادي

الشهير الذي كانت تملأ إعلاناته الشوارع وقناتي التليفزيون الأولى والثانية آن ذاك وصعدنا في أسانسير العمارة إلى الدور الرابع ودخلنا عيادة الدكتور وانتظرنا قليلاً حتى جاء دورنا فدلفنا إلى غرفة الكشف، حيث يجلس الدكتور الوجيه المهاب ذو الشعر الأبيض الكثيف المصفف بعناية والنظارة الطبية البيضاء على مكتب طويل تتوسطه يافطة خشبية صغيرة مثبتة فوق بنورة زجاجية سميكة تحمل اسمه وتخصصه، ألقى رؤوف التحية وجلس يشرح للدكتور ما يلاحظه علي من تهافت وضعف مبدياً قلقة فطلب مني الطبيب أن أنام على الشوزلونج وأعري صدري ولما تهيأت قام بالكشف الدقيق بالسماعة وعند ملامسة السماعة لجسمي لم أستطع مقاومة الضحك فابتسم الدكتور بينما حدجني رؤوف بنظرة محذرة كي لا أتمادى في الضحك، وبعد الكشف أكد الدكتور أنني سليم تماماً من أية أمراض باطنية وأن ما يراه شقيقي رؤوف من آيات الضعف والنحافة ناتج عن الشقاوة وهي أعراض مصاحبة عادة لفترة المراهقة.

محمد أبو شوشة

استكمالاً لسيناريو الخوارق والخرافات التي كانت تروى حلقاتها بشكل متصل منفصل على عتبة عبد الكريم صاحبة الفضل في تكوين الجزء الأوفر من ثقافتنا القروية عن العوالم الغيبية الغريبة ونحن في سن التلقين والبراءة، جاءت رواية الشيخ محمد أبو شوشة، ذلك الرجل الدرويش طليق اللحية والشارب الذي لا يتحدث إلا بالإشارة ويرتدي جلباباً فضفاضاً طويلاً ويغطي رأسه بعمة خضراء كبيرة يظهر من تحتها شعرة المجدول الواصل إلى أكتافه ويمشي حافي القدمين وله أظافر طويلة متسخة، لم يكن أبو شوشة واحداً من الشخصيات الراحلة حينئذ ولكنه كان حياً يرزق، رجل بلا مأوى يأتي إلى قريتنا على فترات متباعدة، لا نعرف عنه شيئاً غير أنه رجل مبروك وله معجزات وبرغم أنه يجاهر بإفطاره في نهار رمضان إلا أن ذلك لم يغير وجهة نظر الناس فيه ولم يقلل من رهبته ولا هيبته، بل ربما يضاعفها لأنهم يعتقدون أن الله وضع سره فيه فأطلعه على ما لم يعلمه إلا هو ومن ثم فمسألة الصيام والإفطار بالنسبة لرجل واصل مثل الشيخ محمد أبو شوشة مسألة ثانوية!

كان هذا الرجل الصامت دائماً محل تساؤل فهناك من يخشاه ويرى أنه من الأولياء وهناك من لا يقطع بصحة هذا الحكم ويراه مجرد أبله أو مدعي البلاهة يمارس نوعاً من الابتزاز الإنساني كي يحصل على ما يحصل عليه من النقود والعطايا لزوم البقاء، ولكن الفكرة الثابتة عند الغالبية العظمى من أهل القرية أنه مبروك ومكشوف عنه الحجاب ويدلل من

يؤمنون به على هذا الرأي بأنه شوهد يطوف حول الكعبة أكثر من مرة في مواسم الحج في الوقت الذي كان يعيش فيه بيننا ولهذا يرون أنه من أهل الخطوة ولا يجوز نهره أو معاقبته مهما حدث منه، أما أنا الصغير المغرم بالسينما فكنت أراه قريب الشبه من توفيق الدقن في فيلم الأرض وبالقطع لم أصرح برأيي هذا لأحد حتى بعد أن كبرت وصرت في سن التمييز.

مثل هذه الحكايات والخزعبلات ظلت نشيطة بقوة في المجتمعات القروية قبل دخول الكهرباء الريف وبداية التعرف على مظاهر الحضارة والمدنية التي لعب فيها التليفزيون دوراً رائداً فقلل تدريجياً من مظاهر الجهل والتخلف والمعتقدات البالية، أهل قريتي مشغولون دائماً بالطقوس الدينية والاحتفالات فهي وسيلة التقرب إلى الله من ناحية ومن ناحية أخرى فرصة للترفية والترويح عن النفس خاصة في ظل انعدام الوسائل الثقافية.. يتزعم حركة الاحتفالات الصوفية الدينية نفر من الناس يتخذونها سبيلاً لاكتساب الثقة والاسترزاق، ويتبارى في ذلك قطبين رئيسيين، هما محمد الكوني، ومحمد البدري فلكل منهما فريق، يبدأ نشاط الطرق الصوفية في القرية في المولد النبوي، حيث تشرع الرايات الخضراء التي يمر بها مجموعة من أعضاء كل فريق في شوارع البلد من شرقها إلى غربها وهم ينشدون الأناشيد والأذكار مرتدين الجلابيب البيضاء واضعين على صدورهم شريط من القماش الأخضر مكتوب علية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعادة ما يكون هذا الطواف إيذاناً بإقامة الليلة

السنوية أمام المسجد البحري أو بالأحرى ليلتين لا يفصل بينهما سوى أسبوع على الأكثر ويتم اختيار ليلة الجمعة تحديداً للتبرك والاستبشار، ويبقى الإنشاد والذكر طوال الليل بادئاً ومستمراً، من بعد صلاة العشاء وحتى الواحدة بعد منتصف الليل وخلال تلك الفترة تتنزل البركات على المشايخ بالنفحات والطيبات من أباريق الشاي وبعض النثريات التي يتقاسمها الشيخ مع بقية الجوقة من السنيده والمرددين أو ما يسمون بالدكة نظراً لجلوسهم على دكة خشبية أسفل المنشد، وكثيراً ما حدثت مشاجرات ومشكلات نتيجة الخلاف على تقسيم الفلوس إنتهت بتبادل الاتهامات والتخوين.

رأيت لأول مرة أخي رؤوف وهو يخطب في الميكروفون في واحدة من الليالي المماثلة التي أقامها كنوع من التسلية والتفكه مع مجموعة من شباب العائلة أمام المسجد القبلي، كان مثيراً للإعجاب في فصاحته وذكائه وواسع ثقافته واطلاعه، وفي محاولة لتقليده أمسكت بسماعة الميكروفون وأخذت أرتجل الكلام وألقي النشيد المدرسي طلع البدر علينا فهو كل ما حفظته من تراث الاحتفالات الدينية وقبل أن أنهي وصلتي وضعت في كف الشيخ قطعة فضية فئة العشرة قروش فرح بها وعلى طريقته الخاصة أسهب في الدعاء لي بوصفي ابناً باراً ومن نسل طيب.. ظلت هذه الليلة بالتحديد حديث العائلة لفترة طويلة ليس لأنها الأهم بين الليالي ولكن لأسباب تتعلق بأخي رؤوف، حيث كان معروفاً ببعده عن مثل هذه الطقوس فهو متجاوز بالسليقة هذا النمط التقليدي

من الأفكار وله أسلوب خاص في الحياة، يهوى القراءة والأدب ويستمع للراديو ويحرص على شراء الجورنال وقراءته يومياً، وله ذوق خاص في سماع الأغاني والموسيقى الكلاسيك ولا يلق بالاً للاختلافات الثقافية الجوهرية بينة وبين أهل القرية من البسطاء والوجهاء والأعيان، هو يمثل في ذاته تياراً حداثياً مضاداً لما هو سائد ومستقر في القرية، غير أن الأدهى والأمر أنه في هذه الأثناء في فترة السبعينيات كانت موضة الشعر الطويل بادئه في الظهور وكان يطلق على ذوي الشعور الطويلة من الشبان مجموعة "الخنافس" وكانت بالطبع تواجه بالرفض لخروجها عن المألوف وبالتالي فكل من يتقلد بها مرفوض أيضاً، وأخي رؤوف كان أحد أولئك الخارجين عن المألوف فشعرة طويل ومصفف بعناية وهو أمر كفيل برفضه ونقده نقداً لاذعاً في محيط العائلة والقرية بصفة عامة، رؤوف الشاب الجامعي المثقف من وجهة نظر المجتمع القروي المحافظ ارتكب خطيئة أخرى ربما أشنع من تطويل الشعر وتصفيفه لأنه ارتدى عباءة صيفي نصف كم وظهر بها في احتفال المولد النبوي، بل وصعد المنصة وألقى خطبة نوعية من حيث المضمون كانت غريبة على ما تفرزه البيئة وتستسيغه الذائقة البدائية.

مرحلة المراهقة

عبرت بوابة الطفولة وصرت في مرحلة أخرى، كل الأماني يمكن تحقيقها والأحلام مشروعه، لازلت عند طموحي، يملأني التفاؤل وأقبل على الحياة بجد فأنا أعرف حدود الرفاهية المتاحة والممكنة ولا مناص من الاجتهاد، يبقى أن أكون عند مسئولياتي لأتجاوز المرحلة الإعدادية بنجاح، حيث الإخفاق فيها سيمنعني من مواصلة طريقي، لذا علي أن أبذل جهداً مضاعفاً في المذاكرة والتحصيل، أشد ما كان يضايقني تلك العبارة التي طالما سمعتها ووخزت قلبي وصدري – خلي بالك أنت في عنق الزجاجة – هذه العبارة كانت تشعرني بأني أمام سد منيع وظلت الرياضة هي عقدتي الأزلية، لا يجدي معها جهد ولا سهر ولا دروس خصوصية ولا أي شيء، قضيت ثلاث سنوات في عذاب حقيقي، لم ينقذني من ورطة الرياضة إلا الأستاذ ملاك أخذت عنده درس خصوصي أنا واثنين من الزملاء، أحمد ومريم، هما بالقطع كانا أشطر مني وكثيراً ما تعرضت لمواقف سخيفة في أثناء حل تمارين الجبر الذي كنت أمقته مقتاً شديداً، حيث ينتهون هما من الحل في وقت قياسي، بينما أكون أنا شارداً في عالم آخر غارقاً في الطلاسم والرموز والبسط والمقام.. طالت محنتي وكدت أفقد تعاطف الأستاذ ملاك معي الذي صارحته من البداية بضعفي الشديد في الرياضة فقبل التحدي، لكن يبدو أن المواقف المحرجة المتكررة التي واجهتها أمام أحمد ومريم في حصة الدرس استنفرت بداخلي مواطن القوة والعزيمة فجعلت أحاول وأحاول حتى

صرت في المستوى المعقول الذي يضمن لي النجاح بالكاد في تلك المادة السخيفة، وبالفعل نجحت في امتحان آخر السنة بالحد الأدنى على الرغم من حصولي على درجات متميزة في بقية المواد ومن بينها العربي الذي كنت أحرز فيه انتصارات عظيمة بحصولي على الدرجات النهائية أو ما دونها بقليل، وهذا ما كان يحدث لي بعض التوازن النفسي ويجعلني مدركاً أن عقبة الرياضة في حياتي مسألة مؤقتة وإن كانت تؤثر على مجموعي الكلي وتهدر مني فرص التفوق.

حصلت على الشهادة الإعدادية والتحقت بالمرحلة الثانوية، في التعليم العام وفي السنة الأولى ذقت الأمرين جراء حساب المثلثات والجبر والهندسة، ولكني مررت مرور الكرام ووصلت للصف الثاني وتنفست الصعداء حين اخترت لنفسي القسم الأدبي وصرت بمنأى عن الخطر الداهم الذي عشت فيه سنوات طويلة، شعرت بتغير ملحوظ فالحالة النفسية أهدأ والثقة أعلى.. انتقل معي للقسم الأدبي في مدرسة ناصر الثانوية الخاصة مجموعه من الزملاء الأصدقاء، محمد فوزي وأحمد عبد النعيم سليمان وناصر زكي وعصمت محمد وآخرين، وفي هذه السنة تعرفت من خارج مدرستنا على مروان حبيب، طالب بمدرسة الزراعة الثانوية، خفيف الظل مشاغب يتمتع بجاذبية شديدة ناحية البنات، وجدت في مروان نموذجاً للشخصية غير التقليدية فهو ينفرد بخبرات واسعة في الحياة لم تتوافر لي برغم أنه لم يكبرني إلا بعام واحد فقط ويعود ذلك إلى أنه فقد والدته وهو صغير وتزوج أبية من امرأة أخرى كانت سبباً

في أن يقضي معظم الوقت خارج المنزل فوالدة موظف بسيط وضعيف أمام جمال وسطوة الزوجة ومنحاز لها على طول الخط، ولا يرى في ابنه الأكبر غير المساوئ، ولد منفلت يلهث وراء البنات وفاشل في الدراسة ومسرف إلى أقصى درجة، هكذا تلخصت فكرة الأب عن ابنه وهو ما كان كافياً لإحداث فجوة واسعة بينهما، أما أنا فلم أكن أرى في مروان كل هذه العيوب بل على العكس كنت أراه شاباً طيباً كريماً حسن المظهر برغم دلائل العوز والاحتياج البادية عليه، كل ما في الأمر أنه جريء ومجازف وهذه الصفات على وجه التحديد هي التي دفعتني لقبول صداقته، حيث كان هو الساعي لي والمبادر بالكلام معي في أول لقاء لنا مع الأيام الأولى للدراسة، أقبل على وهو يحمل كشكولاً واحداً ويرتدي بدله زرقاء صيفية بكم كامل ارتدى تحتها بلوفر ليحمي نفسه من نزلات البرد المتوقعة في هذا التوقيت من السنة - منتصف شهر سبتمبر-، أبيض البشرة، نحيل الجسم متوسط الطول له شعر أسود ناعم تكسو وجهه ابتسامه هازئة لم تفارقه طوال علاقتي به والتي استمرت قوية لسنوات.

كان لمروان حبيب دور كبير في أن أخرج عن طور الولد الخجول المفرط في الأدب إلى حد الملل فقد صحبته في كثير من جولاته اليومية وكان يبهرني بجرأته في الحديث مع البنات والنساء ومن خلاله خضت مغامرات كثيرة فاشلة كنت أنسحب منها قبل أن تكتمل خوفاً من العواقب، كان مروان يذهب أسبوعياً وبشكل منتظم ليلتقي بعشيقة له كانت توهمه بالحب ليمارس معها وفي كل مرة كان يعود منتشياً ليحكي لي

عما دار بينهما بالتفصيل، ويستخدم أسلوب الإثارة والتشويق في الحكي لينقل الأجواء كما كانت تماماً وبالطبع كان يبالغ في بعض الأشياء ليثبت أنه الولد الخارق، وفي ذات مرة طلبت منه أن يأخذني معه لأرى تلك المرأة المثيرة التي يعذبني بالكلام عنها، فوافق سريعاً على عكس ما كنت أتصور، وذهبنا سوياً في اليوم الموعود، كان اللقاء المرتقب قبيل المغرب في منطقة ريفية نائية اشتهر معظم أهلها بالعمل كعربجية، دخلنا المنطقة ترمقنا الأعين كأننا في حي الباطنية وتسارعت دقات قلبي من شدة الخوف والاضطراب وعلى ناصية من النواصي وقفنا أنا ومروان ننتظر، وبعد نحو نصف ساعة مرت ثقيلة كأنها سنه ظهرت امرأة سمراء داكنة رشيقة القوام واقتربت في حذر وسلمت على مروان ولم تهتم بوجودي ولكن مروان بادر بتقديمي لها قائلاً: عبد الرحمن أعز أصدقائي حكيت له عنك كثيراً فطلب أن يراك، فألقت بدورها نظرة خاطفة نحوي وقالت بحده وعايز إيه سي عبد الرحمن؟! فارتبكت ولم أنبس بكلمه تاركاً لمروان مهمة التفاهم معها، فضحك ضحكة مصطنعه وقال لها لا ما فيش بقولك كان عاوز يشوفك مش أكتر، فردت بحده وأهو شافني.. إيه المطلوب؟

كان وقع الجملة علي قاسياً فانصرفت في الحال متقززاً من سوقية المرأة اللعوب الوقحة وتبعني مروان في خزي وهو يطأطأ رأسه كمن فعل فعلة شنعاء.

أنا ومروان والبيزنس

دفعت الظروف مروان حبيب إلى نزول سوق العمل مبكراً وكان لا يزال يعاني من سلبية أبوه وقسوة زوجة الأب، عمل في أكثر من مكان بعد أن أنهى دراسته الزراعية المتوسطة وحصل على الدبلوم وبات في انتظار التجنيد، خلال هذه الفترة كان يقيم في إحدى اللوكاندات الفقيرة بحي السيدة زينب بشارع زين العابدين، ترددت على اللوكاندة كثيراً لزيارته، كان يقيم في غرفة مشتركة مع ملحن بائس حقق مستوى متواضع من الشهرة بعد أن لحن أغنية لوردة الجزائرية فكان ذلك مدعاة لفخر صديقي مروان فبات يسهب في الكلام عن الملحن المغمور ويعدد لي إمارات عبقريته ودلائل نبوغه الموسيقي ولا ينسى أن يربط مسألة عدم الشهرة الواسعة بالحظ، كان مروان يقضي فترة النهار كلها في اللوكاندة ولا ينزل منها إلا لشراء الأكل وبعض المستلزمات الشخصية فهو يوفر طاقته للفترة المسائية التي يعمل خلالها لدى محل "الرفاعي " الكبابجي بميدان السيدة، وقد روى لي مروان الكثير عن تفاصل العمل بالمطعم الشهير الذي يرتاده كبار نجوم الوسط الفني أمثال عادل إمام وسعيد صالح ويونس شلبي وسمير غانم وغيرهم من الشخصيات المهمة التي لم يكن مروان يميز منهم غير أولئك النجوم بحكم شهرتهم، وقد نقل لي الكثير من مصطلحات المهنة التي يستخدمها الجارسونات أثناء عملهم كشفرة بينهم وبين بعضهم البعض ومنها، " فرع نيل " والتي تعني الماء كي يسارع العمال المساعدون بإنزالها على المائدة للزبون على وجه السرعة،

وكذلك " الويسكي " وهو مية السلاطة المخلوطة بالتوابل الحريفة فاتحة الشهية، وهكذا كان يعيد علي ما يسمعه وينبهر به، وفي بعض الأحيان كان يقوم بتأليف بعض القصص المثيرة عن مجتمع المشاهير وينقل لي أجزاء من أحاديثهم التي يسترق السمع لها ويحتفظ بها لكي تكون مادة شيقة للحديث بيننا في جلساتنا النهارية وفي أيام العطلة والإجازات.

الخروج من جنة زين العابدين

اتصل بي صديقي مروان على التليفون الأرضي ببيت شقيقي رفعت وطلب أن يقابلني ضروري للأهمية فارتديت ملابسي ونزلت قبل أن أتناول الغذاء في الموعد المحدد، الساعة الرابعة كما هو معتاد، كان للهروب من روتين الغذاء المقرر بالساعة والدقيقة سبب وجيه فهو صديقي ولابد أن أعرف ما وراء استدعائه المفاجئ لي على هذا النحو، خاصة أن صوته كان يحمل نبرة استياء بما يفيد أن هناك أمر مهم، كثيراً ما كنت أتزرع بالأسباب المقنعة وغير المقنعة للخروج من البيت، وقد وجدت في اتصال مروان سبباً وجيهاً، ركبت ترومای السيدة زينب من محطة حلمية الزيتون لنهاية الخط، قضيت نحو ساعة تقريباً فهو بطئ والمسافة طويلة والمحطات كثيرة، لم أشعر بالملل من كثرة المحطات والوقوف المستمر، بل كنت سعيداً بالرحلة لأنها جددت نشاطي ومنحتني فرصة التأمل والنظر عبر النافذة إلى الشوارع والناس والعمارات وأفيشات الأفلام وكلها أشياء باعثة على البهجة والتغيير.. وصلت محطة السيدة زينب وتوجهت إلى شارع زين العابدين وما إن رفعت وجهي لأستطلع واجهة اللوكاندة الكائنة في أول الشارع والتي تعلوها لافتة قديمة متربة مكتوب عليها "فندق مبروك " حتى رأيت مروان متسمراً في البلكونة الخشبية الآيلة للسقوط بالدور الثاني وقد زاغت عينية وضربت وجهه الأبيض الوسيم الصفرة، لوحت له ولكنه لم ينتظرني حتى أصعد وقابلني على السلم في ارتباك، سألته بدوري عما حدث فلاذ بالصمت وبعد أن نزلنا

إلى الشارع وجلسنا على المقهى المجاور للوكاندة قال بحسم وكأنه يعتزم اتخاذ قراراً بالحرب، أنا لازم أترك الفندق، رددت مستهجناً لأني أعرف مبالغاته وتعظيمه للمشكلات التافهة.. أي فندق؟! فنظر في استغراب مفتعل فندق مبروك يا أخي! فضحكت قائلاً قصدك اللوكاندة؟.. ليه؟ فرد هي الزفته.. وأستطرد كنت بكذب الشائعات واعتبرها حقد عليه من عمال اللوكاندة لأنه لحن لوردة وظهر في التليفزيون.. أيوه شوفته بعيني والله العظيم على الشاشة، لكن للأسف طلع كلامهم كله صح، ابن إل..... طلع شاذ! من هو يا مروان؟ الملحن إللي معايا في الغرفة إللي حكيتلك عنه، الفنان الرقيق يا سيدي، عرفت إزاي؟ هل راودك عن نفسك؟ بتقول إيه؟! دا أنا كنت قتلته، أمال إيه؟.. شوفته بعيني مع واحد من العمال في الغرفة وفي عز الضهر.. استغل وجودي بره وعمل عملته!

حاولت أن أهدئ من روع مروان واجتهدت في تغيير الموضوع وذهبت به إلى أحاديث أخرى عن تجاربه العاطفية أيام التلمذة ومغامراته مع البنات الكسر، ولم أتركة إلا حين ملأت الضحكة وجهه، ولكن قبل أن نفترق طلب مني أن نعمل سوياً في التجارة الحرة لأنه زهق من العمل في مطعم الكبابجي وإمارة الزبائن وتحكمات صاحب المطعم، برقت الفكرة في ذهني وبدوري سألته عن التفاصيل فأكد لي أن التجارة مكسبها مضمون وكل ما في الأمر أن نشتري شوية بضاعة من صلاح السنان في غمرة – صلاح السنان وغمرة؟!.. يعني إيه؟ هكذا كان جوابي عليه

مستنكراً اللغة والطريقة والأسلوب ومندهشاً من الفكرة.. بعد أسبوع وجدت مروان حبيب فارش في ميدان السيدة زينب بالبضاعة، أدوات منزلية صغيرة ومستلزمات مطبخ من شوك وسكاكين ومقصات ومقاطع حلوى وبسبوسة، كان مروان يقف في ثقة متناهية كبائع محترف، يضع على رأسه برنيطة ورق لتحميه من حرارة الشمس وينادي دون خجل أو استنكاف على بضاعته وسط دائرة من سيدات البيوت اللائي التففن حوله لشراء ما يلزمهن من أدوات المطبخ.. اقتربت منه ولم أستطع إخفاء إعجابي بجرأته وقدرته على التعامل مع أزماته بشكل عملي، عرض علي أن أجرب معه يومين فهو يحتاج ناضروجي يراقب البلدية حتى يتفرغ هو للبيع والشراء، وفي محاولة منه لإغرائي قال سأعطيك خمسة جنيه في اليوم غير غداك ومصاريفك الشخصية، الشاي والقهوة والمواصلات، فكر كويس ومنتظر منك الرد يا باشا.

في اليوم الثالث للقائنا ذهبت لمروان في ميدان السيدة زينب لأبلغه بموافقتي على العمل معه ولم يكذب خبراً فقد أوقفني في الحال على البضاعة لأمارس نشاطي في البيع والشراء، واستهواني التعامل مع الفتيات الجميلات والسيدات من سكان حي السيدة وهن لينات مغريات لكنهن لا يزدن عن لين الكلام لقاء قضاء حاجاتهن، فتخفيض ربع جنية أو عشرة قروش من ثمن السلعة هو غايتهن من الدلال المصطنع والدلع الممجوج والضحك من غير سبب الذي لا يفضي لشيء يذكر غير التخدير والإحساس الكاذب بأنهن في قبضة يدك.. تركني مروان

حبيب على الفرش وذهب ليقف على الناصية واهماً إياي بأنة يترقب شيئاً خطيراً، في حين كنت عليم بكل ما يدور في خلده وما يحاول أن يصدره لي، هو يريد أن يشعرني بجسامة مسئولية البيع والشراء ويقنعني بشكل غير مباشر بأن المسألة تحتاج مني لخبرات عالية وهي خبرات يمتلكها هو وافتقدها أنا التلميذ البريء الساذج حسن النية من وجهة نظرة!، حين كان يمعن مروان في لعب هذا الدور ويعيش فيه أكثر مما ينبغي كنت أواجهه وأبدي له سخرية لاذعة إزاء تصرفاته الصبيانية الصغيرة فيضحك من القلب ويخرج من حالة التقمص التي يعيش فيها، وكثيراً ما تحمل مروان مشاكسات صديقنا الثالث عبود الذي تعرف عليه من خلالي وصار صديقاً حميماً له لولا أن دعاباته له كانت ثقيلة للغاية ومع ذلك لم يكن مروان يضيق بها إلا حين يزود عبود العيار.. تعلمت فنون البيع والشراء بعد فترة تدريب استغرقت نحو ثلاثة أيام قررت بعدها أن أعمل لحسابي وأحتفظ بكل المكسب لي بدلاً من العمل باليومية مع صديقي الذي يعتمد علي في كل كبيرة وصغيرة، وبالفعل تعرفت على صاحب المصنع عادل السنان وعرفت مصدر البضاعة وخرجت في أول يوم لأعلن استقلالي عن مروان حبيب كتاجر يعرف أصول اللعبة، ومازلت أذكر هذا اليوم جيداً كأنة البارحة، حيث خرجت إلى منطقة رمسيس وعند محطة كوبري الليمون فرشت بضاعتي، مجموعة شوك وسكاكين ومقاطع بسبوسة وملاعق كبيرة وصغيرة، وفي تمام الساعة الواحدة ظهراً هجمت حملة من قسم الأزبكية فأخذت مني البضاعة وقادتني إلى قسم الشرطة وأنا في حالة زهول فلم أمر بهذا الموقف طوال

حياتي ولم أركب بوكس الحكومة حتى في الكوابيس، المهم مضى بي البوكس مع مجموعة من الباعة الجائلين والمتسولين والنشالين وأرباب السوابق في رحلة طواف مميتة في شوارع وميادين وسط البلد وهي ذاتها الشوارع والميادين التي شهدت تنزهي وسيري متأنقاً ومختالاً بنفسي وأنا أشتري أفخر الملابس من أرقى المحلات، الآن أطوف بها محتجزاً في بوكس الحكومة!

لعنت اللحظة التي عرفت فيها مروان حبيب وأيام الدراسة التعيسة التي كانت سبباً في لقائي به، سبحت في خيال مرعب عن المصير الذي يقودوني إلية رجال مباحث قسم الأزبكية واستبدت بي المخاوف وتصورت أن انقيادي للقسم سوف يسجل في صحيفتي الجنائية كسابقة أولى وتراءى لي نموذج الطفل الضحية في فيلم جعلوني مجرماً، وبينما أنا مستغرقاً في التفكير وقف البوكس أمام القسم بعد نحو ساعة من اللف في شوارع وسط البلد وطلبوا منا النزول واحداً تلو الآخر، وبدوري كنت آخر من نزل، كان رجل المباحث الذي ركب معنا في صندوق البوكس الخلفي قد تبادل معي حديثاً ودوداً للغاية أشاع في نفسي الطمأنينة قبل وصولنا القسم بربع ساعة تقريباً، أخبرته خلاله أنني طالب ثانوي ولست بائعاً جائلاً كما يتصور وأنني فقط أعمل في إجازة الصيف من باب تضييع الوقت واستثمار الجهد وأبدى الرجل الطيب تعاطفاً جماً معي وحين نزلنا من البوكس أمسك بيدي وهدأ من روعي وأخذني إلى مكتب رئيس المباحث ليخلي سبيلي في الحال قبل أية إجراءات وسحب

لي كرسي خيزران وطلب مني الجلوس علية ولكن بطاقتي الورقية كانت في جيبه، ولسوء الحظ تم استدعاء هذا الرجل الذي لم أعرف اسمه إلى الآن في مكتب المأمور وتركني على الكرسي في مكتب رئيس المباحث ليستطلع الأمر ومضت ساعة ثقيلة مريرة ولم يأت، فقد خرج مع المأمور في حملة جديدة وبعد حوالي ساعة ونصف الساعة بعث بتوصية مع عسكري مجند ليحسنوا معاملتي ويسرعوا في إنهاء إجراءات خروجي من القسم، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث إذ دخلت الحجز بالدور الأرضي المعتم الكئيب إسوة بمن كانوا معي وأغلق باب الحجز علي من الخارج كمجرم عتيد في الإجرام، دخلت في ظلام دامس لم أبصر منه شيئاً غير أشباح تتحرك أمامي كأنها زبانية جهنم وبعد قليل بدأت الرؤية تتضح شيئاً فشيئاً فأبصرت من حولي ووقع بصري على رجل أشعث أغبر يكاد يختفي من النحافة يمسك بيده سرنجة ويغرزها في زراعة دون أدنى شعور بالألم، حولت نظري عنه بعد أن انقبض قلبي وكادت روحي أن تزهق من هول ما أرى، في جانب من القبو المظلم رأيت رجل مهاب وسيم ذو ملامح غليظة يجلس في أريحية شديدة على مرتبة إسفنج سميكة وقد التف حوله عدد من المحتجزين يترددون إلية بعبارات التزلف والنفاق وهو لا يأبه ولا يكلف نفسه عناء التعليق، فكل منهم يؤكد أنه من مخلصيه ومحاسيبه، وحين اعتدل في جلسته ورآني أشار لي بيده المتورمة من تأثير الكلبش، هكذا قالي لي.. ما تخافش من إيدي ده بس من تأثير الكلبش، الله يسامحهم ولا د إل..... إقتربت منه على

حذر وأنا أسمع دقات قلبي من شدة الخوف لكنه خيب ظني تماماً فقد أفرد لي بطانية كانت بجواره دخلت إليه خلسة ضمن أشياء كثيرة وربت على كتفي ومد لي لفافة بها بعض الطعام فاستحيت أن أمد يدي برغم جوعي الشديد فالساعة الآن تقترب من الرابعة عصراً وأنا مقبوض علي من الساعة الواحدة ظهراً ولم أكن قد تناولت إفطاري بعد، اللهم غير كوب من الشاي غمست فيه إصبع بقسماط صغير قبل نزولي من البيت في الصباح المعتكر.. عرفت من سياق الأحاديث المتداولة داخل الحجز اسم الرجل الذي أجلس معه فهو عنتر، مسجل خطر له أرشيف حافل بالسوابق الإجرامية في كل المجالات، نشاطه الأساسي البلطجة وتقفيل الأفراح وفرض الإتاوات، ألح علي عنتر لكي أتناول بعض الطعام محذراً إياي من الهبوط والإغماء ولم ينسى أن ينبهني إلى أنني لن أخرج من الحجز ويتم الإفراج عني إلا بعد عرضي على النيابة في الساعة السادسة مساءً.. كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة والنصف فأنا أنظر في ساعة يدي كل عشر دقائق تقريباً والوقت يمر ثقيلاً عنيداً وليس بوسعي أن أتصل بأي من أهلي وأقاربي كي أعلمهم بما حدث، لحظة صمت اكتنفت المكان بعد انزواء البعض في الأركان واستسلامهم للنوم كنوع من الهروب، في هذه الأثناء سمعت صوتاً ينادي، عبد الرحمن – عبد الرحمن، أين عبد الرحمن فانخلع قلبي ورددت بصوت عال أيوه أنا يافندم عبد الرحمن، موجود سيادتك فرد المنادي في اقتضاب خذ بطاقتك، ألقى بها من نافذة القبو المرتفعة فالتقطها عنتر وأعطاني إياها.

في الساعة السادسة إلا عشر دقائق فتحوا الباب وخرجت مع نفر من المحتجزين وقادونا موثقين بالكلابشات، كل اثنين في كلبش واحد إلى سراي النيابة وعن لي أن أسأل أمين الشرطة الذي يرافقنا في رحلة البؤس من قسم شرطة الأزبكية إلى النيابة عما يؤول إليه مصيرنا في النيابة وما بعدها فأنا أخشى من تحصيل غرامة فورية أو طلب كفالة مالية كشرط للإفراج عني وأنا لا أملك إلا بضعة جنيهات قليلة لا تزد عن خمسة عشر جنيهاً هي بالقطع غير كافية للغرامة أو الكفالة وهذا يعني احتمال احتجازي ليوم آخر في جحيم الأزبكية.. لم يرد أمين الشرطة الطويل العريض ذو الشارب الكث على سؤالي ولكزني بقبضة يده لكزه قوية أوقعت قلبي بين ضلوعي فتحملت الضربة الموجعة في صمت وانتظرت المصير.. في النيابة سألني وكيل النيابة الذي يجلس على مقعد وثير خلف مكتب مهيب عن اسمي ووظيفتي فرددت صاغراً اسمي عبد الرحمن ومهنتي طالب ثانوي عام كما هو مدون أمام سيادتكم في البطاقة، فنظر لي شخص آخر أنيق يرتدي بذله كاملة وكرافت كان يجلس في نفس الحجرة بإشفاق وسألني بدورة كأنة يريد أن يثبت لوكيل النيابة صحة ما أقول.. ما اسم مدرستك وفي أي سنة أنت؟ قلت في ثبات مدرسة مصر الجديدة الثانوية الخاصة، أدرس في الصف الثالث الثانوي بالقسم الأدبي.. فأردف قائلاً وماذا تدرس في القسم الأدبي؟ وبدوري واصلت الإجابة باطمئنان فها نحن نصل إلى المنطقة الآمنة في الاستجواب.. أدرس يافندم تاريخ وجغرافيا وانجليزي وفرنساوي وعربي..... إلخ وتعمدت أن أذكر المواد المميزة في القسم الأدبي لأني أدركت مغزى

سؤاله، وبناءً عليه خرجت من سراي النيابة بضمان محل الإقامة وعدت إلى قسم الأزبكية لإنهاء إجراءات الإفراج ومنه خرجت أعانق الشارع والناس كأني أولد من جديد.

ملابس شمس الأصيل

في موسم دخول المدارس كان ضروري أن أشتري عدة أطقم، قمصان وبنطلونات وبلوفرات وسويترات شتوي، جمعت حصيلة ما ادخرته من عملي خلال شهور الإجازة الصيفية وذهبت إلى أتيلية شهير بحلمية الزيتون تملكه سيدة أعمال تتمتع بشخصية قيادية للغاية ولها مواصفات أنثوية جذابة فهي طويلة وعريضة وسمراء البشرة ولا تتحدث إلا قليلاً، يكفي فقط أن توجه نظرة إلى أي من العاملين لديها كي يفهم ما تريد وينفذه على الفور، ذهبت مع شقيقي رفعت واستعرضنا المعروضات وقدمت لنا كتالوج لنختار منه ما يناسبنا وبالفعل وقع اختياري على نموذجين لبدلتين، سبور، أبدت إعجابها باختياري واتفقت معنا على التفصيل وموعد الاستلام، خرجت من الأتيلية مبهوراً بهذه المرأة القيادية المثيرة ولم يكن ذلك رأيي وحدي بل كان رأي أخي رفعت أيضاً الذي عبر عن إعجابه قائلاً: صحيح امرأة بمائة رجل، بعد استلام البدلتين صرت من زبائن المحل وفي كل مرة كنت أذهب فيها لأتيلية شمس الأصيل كنت أحظى بمعاملة خاصة وكثيراً ما كان يداخلني شك في أن هذه المرأة القوية معجبة بي ولطالما انشغلت بهذه الفكرة الصبيانية وراودتني أحلام المراهقة في أن تدعوني هذه السيدة الثرية ذات الأنوثة الطاغية لبيتها يوماً ما وظللت متعلقاً بهذا الأمل فترة طويلة، إلا أنني ذهبت ذات مرة من المرات للأتيلية فوجدته مغلقاً وبسؤالي عن سبب الإغلاق في غير يوم العطلة كان الجواب البقاء لله،

صاحبة الأتيلية توفيت فصدمت صدمة مروعه ولم أنبس بكلمة ورجعت إلى البيت مشياً على الأقدام أجتر كل ذكرياتي مع المكان وأعيد على نفسي كل كلمة قالتها لي هذه السيدة التي كانت أقرب إلى الحلم منها إلى الحقيقة وبالطبع سخرت من أوهامي وأحلامي الصغيرة الساذجة ولكني برغم مرور سنوات طويلة على هذه الحكاية وتلك العلاقة الغريبة العابرة لم أنسى شيئاً من تفاصيلها.

شارع شريف

شارع شريف هو أحد أهم شوارع القاهرة التي تربطني بها ذكريات ومواقف وسنوات من الكفاح والشقاء، كانت بداية علاقتي به منذ عملت مع ابن عمي المدير العام بشركة سابي، الأستاذ ع.م الذي مد لي يد العون مرات كثيرة، أولها أنه كان يوفر لي مكاناً مناسباً في بيته لاستقبال مدرس اللغة الفرنسية الخصوصي زميلة في الشركة والذي يجيد الفرنسية إجادة كاملة كي يساعدني على تحسين مستوايا في اللغة وأنا بالمرحلة الثانوية، ثانياً أن ابن عمي كان يعلم مدى حاجتي للمساعدة المالية فألحقني بالعمل في كافيتريا تملكها زوجته وأشقائها طوال فترة الصيف وكانت هذه فرصة ثمينة بالنسبة لي فقد أكسبتني خبرة واسعة من الناحية العملية ووفرت لي كل ما أحتاجه من مصاريف لزوم الدراسة والملابس والفسحة وخلافة، بدأت العمل تدريجياً في شارع شريف، حيث كان علي أولاً أن أتعرف على الأماكن والشوارع الرئيسية بحي عابدين العتيق كي أصبح مناسباً للعمل الذي يتطلب إحاطة كاملة بجغرافية المكان ومعرفة مداخل ومخارج الشوارع الرئيسية والفرعية، فالمطلوب هو متابعة حركة سيارة البلدية التي تأتي فجأة فتستولي على متعلقات الباعة الواقفين على النواصي ولكي يتفادى أصحاب المحال هجمات البلدية يلجئون إلى تخصيص نفر مدرب تدريباً عالياً على قيادة الدراجة أو الموتوسيكل لاقتفاء أثر البلدية ومتابعة تحركاتها السريعة بوسط البلد، وقد وقع على الاختيار كوني وجه جديد غير معلوم لدى الضباط والعساكر وأجيد قيادة الدراجة وأتمتع بلياقة بدنية

عالية، فرحت بالعرض الذي يمثل نزهة يومية بوسط العاصمة مقابل أجر يومي عالي لا يقل عن خمسة جنيهات وهو مبلغ معتبر في فترة الثمانينيات، وبرغم قبولي القيام بالمهمة في بادئ الأمر إلا أن بعض الهواجس تسلطت علي فتراجعت عن الموافقة خوفاً من عواقب وأخطار اللعبة التي كانت تحتمل إصابتي في حادث سيارة أو القبض علي بتهمة مطاردة سيارة البلدية ونقل معلومات عن تحركاتها لصاحب العمل وقبضايات شارع شريف من التجار والصنايعية.

رفضت الفكرة وقبلت بالعمل داخل الكافيتيريا كمساعد لا تسند إلي أية أعمال، اللهم غير مراقبة النشاط العام وحركة العمل في أضيق الحدود ولكني بعد مرور أيام قليلة بدأت أتململ من الفراغ وأضيق بأسلوب الصنايعية والزبائن وطريقتهم في المخاطبة وسوقيتهم المعلنة والدالة على مستواهم العلمي والثقافي المتردي للغاية، فقد عرفت لأول مرة أساليب جديدة ومبتكرة في الهزار والمداعبة مع بعضهم البعض فكلما كانت العلاقة قوية وأريحية كانت البذاءة أكثر وضوحاً فلا يوجد سقف للتجاوز بينهم، كل الأشياء مباحة وكل الألفاظ النابية متوقعه وواردة ولا شيء مما أتصوره قبيحاً ومقززاً يمكن أن يعكر صفو العلاقة بين زبائن المقهى الذي نجمله نحن العاملين به بتسمينه بالكافيتريا على اعتبار أنها أرقى نسبياً ومن ثم لا يجوز تسميتنا بالقهوجية، المهم أنني ضقت ذرعاً بالمقهى والزبائن والمناخ كله وتمثل لي الممر الضيق الواصل بين شارع شريف الرئيسي والمقهى سجناً معنوياً وواقعياً وصرت أمقته كسجين

يفقد الأمل في الإفراج، الممر كان ضيق للغاية يتسع بالكاد لدخول عربات اليد الحديدية التي تحمل صناديق المياه الغازية، من الشويبس والبيبسي والسفن أب والكراش والكندا دراي والسبورت كولا وألواح الثلج.. في مدخل الممر يوجد كشك صغير جداً يملكه رجل متدين لا يبتسم ولا يتكلم أبداً متخصص في عمل الأختام واللوحات المعدنية، لم أذكر أنني بادلته كلمة واحدة أو تحدث إلي بحرف، كان رجلاً صموتاً يحرص على أداء الصلاة لوقتها فحفرت في جبينه زبيبة صلاة واضحة، باعثة على الرهبة والوقار، على الجانب الآخر من الممر وعلى بعد خطوة أو خطوتين يقع محل حلاقة لرجل ضخم لا يكف عن الثرثرة، يفتي في كل شيء، في السياسة والثقافة والموضة وتجارة العملة والسينما والموسيقى والبالية والفن التشكيلي وكل ما يتعلق بالحياة العامة تجد له صدى عند هذا الحلاق العبقري!

أشكال وألوان من البشر كنت أراها صباح مساء في مقهى الأشقاء الثلاثة أو كافيتريا شريف حسبما تحمل اللافتة المرفوعة أعلى الواجهة، كل شيء في هذا المكان كان يؤزمني ويشعرني بالقلق والخوف، رأيت كريم الترزي وهو يعجن قطعة من الأفيون في فنجان القهوة ولم أكن أعرف ماذا يفعل إلا بعد أن تكررت عادته وسألت عن سر حضوره المبكر ووقوفه بجانب البوفيه واستغراقه في ما يصنع كل يوم لأكثر من نصف ساعة، حينئذ أخبرني أحد الزبائن مشفقاً علي من الحيرة وساخراً من سذاجتي بأن الأسطى كريم يخلط الأفيون بالبن كي يزن دماغه

ويصبح قادراً على مواصلة اليوم، عرفت خالد سليم، بلطجي يرمي بلاه على أصحاب المحال كي يستعينون به كقهوجي وبودي جارد، ناصبني خالد هذا، العداء منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها بالمقهى فهو شرير بالسليقة تشع من عينية الجاحظتين المحولتين شرارات الغضب ويتمتع بقوة بدنية تجعله مهاب من الجميع، كنت أتحاشى التعامل معه وبدورة كان يعمل حساباً لدرجة القرابة التي تربطني بالإخوة الثلاثة أصحاب المقهى ولكنه في نفس الوقت لا يخفي استفزازه مني لأني لا أعاملة كالآخرين بمنطق الخوف ولا أقيم له وزناً فهو في نظري ليس أكثر من عاطل بلطجي متنطع، اشتبكت معه ذات يوم فعاجلني بلكمة قوية في وجهي فسال الدم من خدي لأن خاتماً كان في إصبعه الخنصر أصابني بجرح سطحي، هالني منظر الدم فأمسكت بزجاجة بيبسي فارغة وكسرتها على رأسه فسال الدم منه أغزر وأكثر وانتهت المشاجرة بيننا بالتعادل، واستمرت العلاقة بيني وبينه كندين قويين برغم فارق السن والقوة والعضلات، وقد أفادتني هذه الواقعة أيما إفادة فلم يعد أحد ينظر إلي كتلميذ صغير ضعيف، بل حظيت باحترام مضاعف وعبر الكثير من رواد المقهى وأصحاب المحلات المجاورة بالممر عن إعجابهم الشديد بشجاعتي لأني فعلت ما كان كل منهم يريد أن يفعله وأمضيت بقية شهور الإجازة الصيفية آمناً مطمئناً.

نادي القاهرة الرياضي

على كورنيش النيل وبجوار سور حديقة الحرية بمنطقة الجزيرة يقع نادي القاهرة الرياضي المجاور لشيراتون القاهرة، كنت كثيراً ما أقطع المسافة بين ميدان التحرير وميدان سعد زغلول سيراً على الأقدام مستمتعاً بالهواء النقي وصفحة النيل الرائقة وأنا أمشي الهوينه على كوبري قصر النيل وأعبره متجاوزاً حديقة الأندلس وبرج القاهرة والأوبرا، كنت أراقب حركة أعضاء النادي من خارج السور الحديدي الذي يسمح بالرؤية وأعجب كثيراً بشكل الشباب والشابات وهم يتجولون داخل النادي بالملابس الرياضية، وذات يوم دخلت إلى النادي واستأذنت أفراد أمن البوابة الرئيسية في السؤال عن شغل وبالفعل سمحوا لي ودلوني على المسئول عن تشغيل العمالة المؤقتة للطلبة، وحظيت بمقابلته وبعد عدة أسئلة بسيطة ألحقني الرجل الطيب بعمل خفيف، في مواعيد مناسبة لي، من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة الثالثة عصراً مقابل ثلاثة جنيهات في اليوم بخلاف المواصلات، سعدت بقبولي ضمن العاملين وشعرت بفارق شاسع بين جو المقهى وجو النادي، النادي يقع في مساحة شاسعة ومقسم تقسيماً هندسياً بديعاً، حديقة كبرى وملعب لكرة القدم وملعب للتنس وملعب لكرة السلة وعدد 2 حمام سباحة، جاء موقعي كعامل صغير باليومية على حمام السباحة الكبير، عمل بسيط جداً، يتلخص دوري به في كتابة طلبات الأعضاء من المشروبات والمأكولات وتبليغها للمتر لتجهيزها، كان المتر يعرف الأعضاء بالاسم، بينما أجهل أنا كل

الشخصيات وكل الأسماء وقضيت فترة حتى بدأت في التعارف على بعض الأعضاء والعضوات، كان التعامل سلساً وسهلاً مع الفتيات والنساء فجميعهن كن يتعاطفن معي أيما تعاطف كوني تلميذ أعتمد على نفسي وأعمل من أجل مواصلة دراستي وأقضي العطلة الصيفية فيما يفيد بدلاً من التسكع على النواصي وفي الشوارع، كان هذا منطقهم في البداية، ولكن بعد أن توطدت العلاقة بيننا بمرور الوقت، أصبح التعاطف معي مجرداً من تلك الأسباب وتحول إلى ما كنت أتصور أنه أعجاب شخصي، لا سيما لدى الفتيات المراهقات.

لم أمضي وقتاً طويلاً في نادي القاهرة، فقد حدثت مشاجرة مع عبده، ريس العمال الذي كان يغار من تعاطف الفتيات معي وانحيازهم الدائم لي تركت على أثرها العمل بالنادي لأبدأ من جديد رحلة المعاناة والشقاء في نادي هليوليدو بمنطقة روكسي بمصر الجديدة، لقد اخترت العمل في الفترة المسائية من البداية، حيث يكون الجو ألطف وضغط الشغل أقل وهي الخبرة التي حصلتها من الفترة التي قضيتها بنادي القاهرة وجربت فيها العمل بالفترتين قبل الصدام بعبده، ذلك الرجل الكريه ذو الأسنان المهشمة والشفة المرفوعة والوجه الكئيب.. عندما التحقت بالعمل الجديد كنت قد تأهلت نسبياً للقيام ببعض الأعمال الخفيفة التي تتطلب نوع من المهارة كحمل طاولة المشروبات والساندوتشات والتحرك بها بين الترابيزات دون ارتباك أو إعاقة، فهذه مهنه لها أصول وقواعد في طريقة المشي والحركة وتقديم الطلبات ووضعها على الترابيزه بشكل معين لزوم الشياكة والإتيكيت.

المهم أنني لم أعاني كثيراً في العمل بنادي هليوليدو مثلما عانيت في فترة التعلم الأولى بنادي القاهرة، ولكن برغم الاجتهاد لم أفلح في الوصول إلى المستوى المتميز من الإجادة وظللت مجرد ظهورات لأني لست أكثر من طالب يعمل بشكل مؤقت في فترة الصيف لا يرقى إلى درجة الاحتراف، لم يزد أجري أيضاً عن الثلاثة جنيات في اليوم فهذه تسعيرة العمالة المؤقتة أو بالأحرى تسعيرة الطلبة في العطلة الصيفية، وتعد فترة الصيف فترة مفضلة لدى أصحاب الأعمال لأن العمالة فيها تكون متوافرة ورخيصة نتيجة وجود الطلاب وتهافتهم على الشغل.

مدرسة ناصر الثانوية

ارتبطت باسم الزعيم جمال عبد الناصر في فترات طويلة من حياتي بمحض الصدفة، فكما صادفني الاسم في طفولتي وانطبع في ذاكرتي، صادفني أيضاً في المرحلة الثانوية، فقد التحقت فور حصولي على الشهادة الإعدادية بمدرسة ناصر الثانوية الخاصة بمدينة ديروط، إحدى مدن محافظة أسيوط العريقة والمهمة، وهي ذاتها المدينة التي شاءت الأقدار أن تكون مسقط رأسي برغم أني لست من سكانها، ولكن لأسباب تتعلق بوجود أمي في عيادة الدكتورة جميلة، طبيبة أمراض النسا الشهيرة هناك لمتابعة الحمل فاجأتها أعراض الولادة وهي حامل في الشهر السابع فوضعتني فصرت من مواليد المدينة التي لازلت أحبها وأشعر تجاهها بحالة من الشجن، مدرسة ناصر الثانوية تقع في إحدى ضواحي مدينة ديروط، مدرسة قديمة ذات بنيان تاريخي، لها واجهه جميلة وبوابة حديدية مهيبة وسور على ارتفاع متر ونصف ومحاطة بالأشجار ولها مدخل يشبه مداخل فنادق الخمس نجوم فهي أقرب إلى القصر منها إلى المدرسة، التحقت بها لمدة عامين، كانت بالنسبة لي محطة تمهيدية للانتقال إلى القاهرة، حيث اقتضت الظروف أن يتم تنسيقي بها قبل تحويل أوراقي إلى مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية الخاصة بميدان تريومف بمصر الجديدة، وقد كان، أمضيت بها العامين الدراسيين، الأول والثاني وتطلب مني ذلك الإقامة في مسكن بالإيجار، كان عبارة عن شقة 4 غرف وصالة كبيرة ومطبخ وحمام، لا أشغل من الغرف الأربعة سوى غرفة واحدة مقابل

عشرة جنيهات في الشهر، البيت كان من البيوت حديثة البناء عبارة عن دورين فقط، مملوك لمدير مكتب بريد يقطن الدور الثاني هو وأولاده وزوجته، رجل محافظ، له ابن خريج وبنت تعمل مدرسة ثانوي، وله ابن آخر مقيم في القاهرة، هذه الأسرة الصغيرة تعاملت معي طوال العاميين الدراسيين كضيف معزز مكرم وليس كساكن أعزب في سن صغيرة تستدعي المراقبة.. وبطبعي كنت منطوياً، أميل إلى الهدوء الشديد ولا أحب الاختلاط بجو الطلاب، اللهم غير القليل جداً منهم.. بعد شهر من السكن بمفردي شاركني في الغرفة اثنين من الطلبة خففوا عني عبء الوحدة وبددوا الإحساس المقيت بالوحشة التي كنت أستشعرها حين أغلق على نفسي الباب من بعد المغرب كسجين انفرادي في زنزانة لا يجد من يكلمه أو يسري عنه، مصطفى رشوان ومروان حبيب كانا بالنسبة لي بمثابة المنقذين فبوجودهما معي تغير شكل الحياة ودبت الروح في السكن وباتت شقتي نزهة الطلاب المغتربين، أصدقاء مروان حبيب كانوا كثرة ومن نوعيات مختلفة، أغلبهم من الطلبة الأشقياء، ليس من بينهم من لديه ميول ثقافية أو فنية، الغريب أنهم كانوا يكبرونني ويتعاملون معي باحترام شديد ويستمعون لي بإصغاء ويستجيبون لنصائحي كأني ولي أمرهم وليس طالب مثلهم، أما مصطفى رشوان فهو شاب بسيط، منكب على المذاكرة لا يعرف من إمارات الرفاهية شيئاً يذكر، أخذناه معنا للسينما، أنا ومروان ذات مرة لنشاهد فيلم " رحلة العمر " لشمس البارودي وأحمد مظهر ومريم فخر الدين فانبهر بجو السينما ولكنه لم يعاود التجربة خوفاً من تعلقه بهذا العالم الفني الغامض الذي

يثيره ويدهشه، كنت أنا مولع بالسينما والفن والإبداع، قرأت في أثناء عودتي من المدرسة إعلان عن حضور فرقة السيرك القومي والمطرب الشعبي شفيق جلال لتقديم عرض فني بقاعة سينما القرشية لمدة أسبوع فقمت بحجز تذكرتين لي أنا ومروان حبيب في الصفوف الأولى بخمسة جنيهات للفرد، وبالفعل شاهدنا العرض وسهرنا حتى الثانية عشر مساءاً، ومن حسن الحظ أن السينما كانت مجاورة للسكن الذي نقيم فيه، ولكن صادفتنا مشكلة عويصة في المصاريف طوال الأسبوع وعشنا حالة من التقشف لم نعتاد عليها.

لازلت أحن إلي مدينة ديروط وذكرياتي معها، زملاء المدرسة والمدرسين والمدرسات وعم هاشم الفراش الذي كان يفتح لنا الباب الحديد الرئيسي قبل موعد الخروج حين يعن لنا التزويغ مقابل خمسة قروش وهي تسعيرة لا تقبل الفصال ولا تعني المناقشة فيها إلا الإبلاغ عنا والتهديد بفصلنا مع إحضار ولي الأمر، لذا كنا نؤثر السلامة وندفع الخمسة قروش ونحن صاغرون.. كنت قريب جداً من المدرسين لأسباب عديدة منها أنني من المنضبطين تماماً في الفصل، لا أرفع صوتي ولا أتحدث كثيراً بغير ضرورة، فضلاً عن اهتمامي بمظهري واعتدادي بنفسي وحرصي على أن أبدوا تلميذاً مثالياً مجتهداً، وكعادتي في كل المراحل الدراسية كنت متميزاً في اللغة العربية، ومن ثم فأنا على وفاق دائم مع مدرسين العربي، الأستاذ أحمد شاكر والأستاذ أحمد أمين، الأول كان يتحدث معنا بالفصحى كي يعودنا على النطق السليم والفهم

الصحيح للقواعد النحوية، وبطبيعتي كنت أميل لذلك فأثير إعجابه، والثاني كان مثقف ثقافة رفيعة تتجاوز فكرتنا التقليدية عن مدرس اللغة العربية، يحدثنا عن المفكرين والأدباء في سياقات بعيدة عن المنهج الدراسي المحدود فيثير فضولي وخيالي، وقد استفدت منه أيما استفادة ولم أخشاه كبقية الطلاب كونه شديد وقاسي في عقابه، ولكن على العكس كنت أحبه وأرى فيه القدوة الحسنة فهو بالفعل مختلف في طريقة تدريسه وعلاقته بالطلاب، كان يهتم بالجانب الإبداعي في شخصية الطالب، ويراقب سلوكه العام في الفصل ويعرف الكثير منا بالاسم.

بعد انتهاء اليوم الدراسي كنت أخرج من السكن الكائن في شارع البوسته لأتجول في مدينة ديرط، أمر بالسينما، أتطلع إلى الأفيشات المعلقة على الواجهة العتيقة وأقرأ أسماء النجوم بشغف وانبهار وأتحسس جيبي لأعرف كم تبقي معي من مصاريف الشهر، وأمر بالساحة الفسيحة أمام السينما عابراً كوبري القرشية العتيق، مستمتعاً بأمواج ترعة الإبراهيمية الهادئة في جو رومانسي بديع، وتراودني أحلام الشهرة والأضواء فأدندن بأغنيات عبد الحليم وأنا في حالة من الشجن، وكثيراً ما لفت نظر بعض المارة حين كنت أستغرق في الغناء فيرتفع صوتي تدريجياً دون أن أشعر، وفي نشوة الغناء والاندماج كنت أستقبل نظرات الإعجاب بسرور وفرح متناهيين، وقد عرف عني في المدرسة عشقي لصوت عبد الحليم حافظ وقدرتي على أداء أغانية بشكل متقن للغاية، كان يلتف حولي الطلاب في الفسحة وأنا أغني فيطربون لصوتي ويصفقون في استحسان ويطالبونني

بالإعادة، البنات كن يسترقن السمع عن بعد ويرسلن نظرات إعجاب خجلا يخفق لها قلبي وتهتز مشاعري فأتمادى في الغناء وأجود في الأداء، وبفضل الدعاية التي صنعها لي ندمائي، محمد فوزي عبد الوكيل، وأحمد عبد النعيم سليمان ومحمد محمد عبد السلام وعصمت الميري صرت أشهر من النار على العلم في المدرسة وتلاشت المسافات بيني وبين أغلب المدرسين، بما فيهم مدرس الإنجليزي الذي صار صديقاً لي وزارني في بيتي حين مرضت مصطحباً معه عدد من الطلبة للاطمئنان على صحتي.

لم يكن ينافسني في المدرسة غير محمد فوزي، طالب أنيق يتمتع بوسامه لافته، يلكن القاهرية فهو محول من مدرسة العجوزة الثانوية لظروف أسرية، كان فوزي محل اهتمام الطلبة والأساتذة، لا يعيبه غير الثرثرة فهو كثير الكلام برغم أدبه الجم، صارحته ذات مره بمشاعري العاطفية تجاه مدرسة اللغة الفرنسية التي كانت تتمتع برقة متناهية وجمال هادئ أخاذ، " أبله ميسون " كانت المدرسة الوحيدة في المدرسة، شقراء تشبه كثيراً نجمات السينما العالمية، لها عينان زرقاوان وخصر نحيل وقوام ممشوق، متأنقة ولها لمسات خاصة في طريقة اللبس تنبئ بذوق رفيع، كنت أراها ثلاثة مرات في الأسبوع، أحرص على حضور حصتها وأستعد استعداداً شخصياً لمقابلتها كأنها زميلة تربطني بها علاقة حميمة وتبادلني نفس الشعور، في أثناء وجودها في الفصل أظل شارداً سابحاً بخيالي في ما هو أبعد من محيطنا وزماننا وكينونتنا، وكثيراً ما ضبطني متلبساً بنظرات ساهمة تجاهها، كنت أريد أن يصلها إحساسي، لكن

تجاهلها لكل محاولاتي الصبيانية أحبطني وجعلني أصرف النظر عنها إلى نهاية العام الدراسي وأهمل حصص الفرنساوي، حين صارحت محمد فوزي بمشاعري تجاه أبله ميسون تقمص دور الحكيم الخبير بالتجارب العاطفية الوليدة، وأخذ يسدي لي النصائح الواجبة لتحقيق نتائج إيجابية سريعة، وعلى الرغم من إدعائي الاهتمام بما يقول كنت أسخر في قرارة نفسي من نصائحه الساذجة وبلاهة أفكاره.

العودة إلى القاهرة

انتقلت إلى القاهرة مع بداية العام الدراسي الجديد، قدمت أوراقي لمدرسة جمال عبد الناصر الثانوية الخاصة بشارع نخلة المطيعي بميدان تريومف بمصر الجديدة، قضيت في المدرسة أسبوعاً واحداً ولأسباب تتعلق بالكثافة العددية حولت أوراقي إلى مدرسة مصر الجديدة الثانوية الخاصة بميدان الحجاز والتي تقع على بعد محطتين فقط من المدرسة الأولى، ساءني هذا التعسف من جانب إدارة المدرسة التي سلمتني الملف مع بداية الدراسة في عملية التصفيات بحجة أني كنت آخر المتقدمين، غادرت المدرسة التي كنت أرغب في الالتحاق بها وأنا حزين فقد ارتبطت بها على مستوى المكان والأشخاص، لكني استسلمت للظروف وذهبت إلى مدرستي التي قضيت بها أجمل أيام عمري على الإطلاق، أسبوع أو أسبوعين فقط شعرت فيهما بالوحشة والغربة، لكن سرعان ما تبدد هذا الإحساس تماماً بعد أن آنست بعض الزملاء ولمست فيهم الرقة والخلق الطيب، محمد علي البحيثي، فلسطيني من بيت لحم، يحب الغناء والطرب ويعشق صوت مارسيل خليفة – شارل وليم " لبناني " الأصل يعيش في القاهرة بشكل مؤقت ويستعد للسفر إلى ألمانيا والإقامة هناك بشكل دائم، يجيد الإنجليزية ويتحدثها بطلاقة، مثقف وله رؤية سياسية تناسب سنة – عماد مشهدي " سوري "، وسيم جداً وخفيف الظل يميل للمرح والفكاهة – ألفريد عزيز، موسيقي وحالم.. توفي فجأة دون سابق إنذار فانقلب يوم وفاته مأتماً في المدرسة، قرأت خبر وفاته على اللوحة المعلقة

بالدور الثالث فانخرطت في بكاء شديد وغرقت في حالة من الحزن لمدة طويلة جداً – هشام شعبان، زميل مميز وصديق فوق العادة، من ألماظه، راجح العقل ورزين ويبدو أكبر من سنة، الأخوين أحمد ومحمد عمران من السبع عمارات – جمال الدين بهاء الدين بحر، زعيم المشاغبين، طويل وعريض وله هيبة وخفيف الظل، سنجاب، ابن خالة جمال ويتبعه كظله، أشرف أبو العلا وسمير فاروق وحكم عبد المجيد وحاتم رمضان، مجموعة صعب صالح فجميعهم يسكن في شارع صعب صالح بعين شمس، وهي الشلة التي كنت أنتمي إليها وأقضي معها معظم الوقت، كنا نجتمع في بيت سمير وبالتحديد في شقته بالدور الثاني والتي يتم تجهيزها له باعتبارها بيت الزوجية بعد التخرج، كان سمير يبدد الوقت كله في الكلام عن مشروع زواجه العاجل الآجل والمستقبل الذي يرسمه له أبوة ونحن نستمع له بمنتهى الشغف، وعلى مدار الساعات الطويلة التي كنا نقضيها في بيته لم تنقطع النفحات، السندوتشات والشاي والعصائر، ولم يكن يقطع استرسال سمير في الكلام والحكي سوى مناوشات حكم عبد المجيد وكلامه الكثير عن أبوه الطيار ورحلاته المكوكية حول العالم والهدايا التي يجلبها له من أوروبا، حكم كان ثرياً بالفعل، كل شيء في حياته يدل على ذلك، مظهرة الشيك ونفقاته الكثيرة والسيارة المرسيدس البيضاء التي كان يركبها ويذهب بها إلى المدرسة في فترات سفر والدة خارج مصر.. حكم كان مهذباً وراقياً لكن كان عيبه الوحيد الظاهر يتمثل في مباهاته المتكررة بفلوس أبية ومستواهم الاجتماعي المتميز وقد انقطعت صلته بنا أو انقطعت صلتنا به لهذا السبب، فيما ظلت بقية الشلة

متماسكة وقوية لعدة سنوات امتدت لما بعد مرحلة الدراسة الثانوية.. حاتم رمضان كان يشبهني إلى حد كبير في الشكل والتكوين الجسماني، هادئ الطبع – خلوق، لم أره متعصباً قط طوال سنوات الدراسة، ربطتني به علاقة متميزة وخاصة جداً أخذت فيما بعد شكلاً عائلياً، حيث دأبت على زيارته في بيته وتعرفت على أسرته، وبالقطع زارني هو عدة مرات في بيت شقيقي رفعت أثناء إقامتي معه، كانت زيارتي لحاتم في بيته تسري عني كثيراً وتذهب عني الإحساس الموحش بالوحدة فعن طريقة تعرفت على أقاربه وجيرانه وكثيراً ما قضيت أوقاتً ممتعه في غرفته التي حملت كثيراً من الذكريات والمناقشات حول همومنا وأحلامنا الصغيرة وقد حكى لي حاتم عن مغامراته العاطفية وعلاقته ببنت الجيران، محبوبته الأولى التي أصبحت فيما بعد زوجته، حيث أنهى دراسته الجامعية وسافر فور تأديته للخدمة العسكرية إلى إحدى دول النفط وأمضى فيها سنوات طويلة ظللنا خلالها نتبادل الرسائل والمكاتبات، وفي هذه الأثناء اكتشفت موهبة الكتابة الكامنة عند صديقي والتي تفجرت تلقائياً بفعل الغربة والحنين الجارف للوطن ولكنها توقفت عند حدود الرسائل فقط التي كان يبدو فيها تميزه واضحاً وجلياً فلم تكن رسائله تبدأ بالسطور التقليدية بعد البسملة والتحية كما هو معتاد، لكنه كان يبدأ رسالته من النقطة التي تشغله وتثير شجونه وشجوني ويصف اللحظة التي هو عليها أثناء الكتابة بحساسية مفرطة وعلى مستويات تأثيرية مختلفة حتى وإن كانت لحظه شديدة البساطة، ولهذا احتفظت بكل الرسائل التي أرسلها لي وفوجئت بعد عودته أنه فعل نفس الشيء.

ومن خلال علاقتي بحاتم تعرفت على صديقة الشاعر جمال منصور الذي كان يصغرني بنحو خمس سنوات والذي ملأ فراغه طوال فترات السفر فصرنا صديقين حميمين وعزز علاقتنا الشعر الذي كان يهواه ويقرضه ويقرأه علي كلما جادت قريحته بقصيدة جديدة، كان جمال مثقف ومستنير ويغلب عليه التفكير العقلاني المستقل، لذا توافقت معه سريعاً وتجاوزت عن فارق السن الذي يشكل أحياناً عائقاً أمام علاقات الصداقة النامية.

وطوال مشوار الدراسة الثانوية ربطتني علاقات حميمة بعدد كبير من زملاء المرحلة، أذكر منهم بالطبع الأخوين أحمد ومحمد عمران، كنت أتردد عليهما في بيتهما بالسبع عمارات بحكم وجودنا في مجموعة درس الإنجليزي الخصوصي مع الأستاذ سيد الأبيض وهو شخصية ثرية بالمعلومات والخبرات في تخصصه وفي غير تخصصه، بدين إلى حد ما، طويل نسبياً يتمتع بخفة ظل حقيقية، لا يركز في الحصة فقط على شرح الدروس المقررة ولكنه كان يراعي الجانب النفسي فينحرف بنا أثناء الشرح إلى موضوعات ذات صلة ويربطها بالدرس ربطاً ذكياً يخفف من وطأة التوتر ويضيف لنا جديداً على مستوى المعلومة، فضلاً عن إنه كان فكه ومرح.. سألني مره ماذا تفعل لو تزوجت امرأة واكتشفت بعد الزواج أنها مدخنة؟.. السؤال كان مباغتاً ولم أفهم مغزاه ولكني أجبت عنه بما يليق بتلميذ يجلس في حضرة أستاذة فقلت بعد برهة من التفكير

حاولت خلالها أن أبحث عن إجابة مثالية، لا أعتقد أن أخلاقي تسمح لي بالزواج من امرأة مدخنة، فضحك ضحكة عالية لأنه أدرك أنني اجتهدت في إيجاد إجابة ترضيه.

مصر الجديدة

عشت في مصر الجديدة أحلى أيام عمري، وطوفت بشوارعها وميادينها وضحكت ولعبت وغنيت وكثيراً ما انتظرت ذلك الحب المفقود على محطات المترو والأوتوبيس وتجرعت مرارة الخزلان إثر الصدمات والانكسارات التي نتجت عن عشرات المقالب التي وقعت فيها بتدبير من الفتيات اللاتي كن يعقدن المواعيد بغية السخرية والضحك، ولسوء الحظ أنني كنت في مدرسة مشتركة بنين وبنات، البنات يذهبن في الفترة الصباحية والبنين يذهبون في الفترة المسائية التي كانت تبدأ من الساعة الثانية عشر ظهراً وتنتهي في السادسة إلا ربع مساءاً، ويبدأ الإغراء بمقابلة إحدى الفتيات بعد أن تترك رسالة تطلب فيها التعارف وتحدد المكان والزمان واليوم الموعود وتتركها في درج التختة التي أجلس عليها ولا تنس أن تطالبني بكتابة الرد سريعاً مذيلاً باسمي، وعلى وجه السرعة كنت أكتب الرد وأبدي عظيم سعادتي برغبتها في لقائي، وأظل أياماً أنتظر الرد حتى يأتي، وحينها أكون قد تهيأت تماماً للقاء العاطفي المرتقب ورتبت كل شيء في سبيل تحقيق الهدف، وأخفي الأمر تماماً عن كل الزملاء حتى لا يسبقني أحدهم إلى المكان منتحلاً شخصيتي فيحظى هو باللقاء، وعلى طريقة المقلب الذي شربه عبد الحليم حافظ من فاتن حمامه في فيلم موعد غرام أصبح أنا الضحية وأعود مخزياً مصدوماً، والغريب أنها تعاود الكره مرات ومرات وفي كل مره أبتلع الطعم ويأتي نقبي على شونه!

تحققت المعجزة ذات مرة، ففي أثناء خروجنا من بوابة المدرسة المفتوحة على ميدان الحجاز أنا وصديقي أحمد عمران الذي كان يعيد السنة لثالث مره ويكبرني بعامين صادفتنا فتاة سمراء ذات قوام ملفت وشعر أسود ناعم ينسدل على ظهرها، ترتدي جونله قصيرة فوق الركبة تكشف عن ساقين ملفوفين وتمشي الهوينه بدلال يغري بالمعاكسة، فلم يفوت صديقي الفرصة وأطلق عدة كلمات من الغزل الصريح أدركت من خلالها أنها المقصودة فبطأت المشي والتفتت بطرف عينيها ناحية الصوت فتشجعنا وزودنا جرعات الغزل ولم تكذب خبراً، نظرت خلفها وسألت عن الطريق المؤدي لمحطة الأمن الصناعي وكنا على بعد خطوات منها فتأكدنا من تجاوبها وسرنا سوياً وتعرفنا وأخذنا نتحدث في أي شيء، وبعد دقائق صرنا أصدقاء كأننا نعرف بعض من شهور، وضعت ذراعها في ذراع أحمد فشعرت بالغيرة وما إن لاحظت هي صمتي وتغير ملامحي حتى بادرت بوضع ذراعها الأخرى في ذراعي وانتشت وهي تمشي بيننا تلامس أكتافها أكتافنا وبين اللحظة والأخرى تحدث ملامسات تبدو عفويه تمس جانباً من نهديها الكبيرين، وقطعنا شوطاً كبيراً سيراً على الأقدام تجاوزنا فيه محطة الأمن الصناعي بمراحل وتوقفنا أمام كشك لتناول المرطبات وبينما نحن واقفين مستمتعين خصتني بسؤال.. جربت الحب قبل كده؟ فأجبت مندفعاً دون تفكير كي أثبت لها أني رومانسي وحبوب، كتيييييير فضحكت ضحكة عالية أصابتني بالخجل فتراجعت سريعاً مش كتير أوي فضحكت أكثر وظلت تداعبني طوال الطريق بكلمات رقيقة تبعث على المرح والتشجيع، ولكنها على العكس

كانت تدقق في كل ما تقوله لأحمد عمران وتعامله بحذر بعد أن قرأت في عينيه النهم والجوع، وتركتنا ونحن منتشين أشد الانتشاء على وعد بلقاء آخر لم يتحقق.

1983 \ 4 \ 16

السادس عشر من شهر إبريل من عام 1983، تاريخ لا يمكن محوه من ذاكرتي فقد سافر أخي رؤوف إلى دولة الكويت في هذا التوقيت ولم يكن يعني سفرة بالنسبة لي سوى انسحاب الروح من الجسد فهو شقيقي الذي يقاربني نوعاً ما في السن والفكر والطبيعة الإنسانية، له نفس الحالة المزاجية، مرتبط بالفكر والفن والثقافة، يهوى القراءة وواسع الاطلاع، له اهتمامات عامه ومشغول إلى حد كبير بالقضايا السياسية.. تخرج رؤوف في كلية التجارة الخارجية، جامعة حلوان عام 79 وأنهى فترة الخدمة العسكرية لمدة عام، سافر بعدها إلى الكويت بعقد عمل من شركة بترا للمرطبات أرسله له ابن عمتي الأستاذ محمود الذي كان مستقراً في الكويت منذ فترة طويلة وقد حظي بعلاقات متميزة وواسعة ربطته بأصحاب الشركات ورجال الأعمال هناك، ويعد ذلك حصاداً منطقياً لسنوات الكفاح والمثابرة التي قضاها طوال مدة غربته، لقد أرسل شقيقي للأستاذ محمود خطاباً ودياً طلب منه فيه أن يوفر له فرصة عمل مناسبة وأرفق بالخطاب مسوغات التعيين وصورة جواز السفر وشهادة البكالوريوس وأنتظر الرد ولم يكن يساوره شك في أن الأستاذ محمود سيلبي رغبته، حيث لم تقتصر علاقته به على درجة القرابة فحسب وإنما كانت تعزز علاقتهما صداقة ترتكن إلى علاقة ابن عمتي بشقيقي الأكبر رفعت والتي سهلت كثير من الأمور ورفعت الحرج عن رؤوف في طلبة للسفر بعشم كبير، لم يمض سوى شهر واحد حتى جاء الرد بالإيجاب

والبشرى، وأكاد أكون أنا الوحيد الذي لم يسعد بهذا الرد الايجابي لأني كنت أستشعر عاقبته وهي فقداني لتوأم روحي وصديقي.

أنهى رؤوف الإجراءات بعد عناء شديد لوجود تشابه بين اسمه واسم آخر لمواطن من الإسكندرية من مواليد باب شرق صدرت ضده أحكام جنائية ومطلوب ضبطه وإحضاره، وقد استغرق تصحيح الاسم عدة أسابيع قضاها شقيقي في السفر ما بين القاهرة وأسيوط والإسكندرية، حيث محل الميلاد ومحل الإقامة وعنوان المواطن الذي يتشابه اسمه معه، في نهاية المطاف سافر أخي رؤوف من مطار القاهرة في الساعة الرابعة عصراً، كنت في وداعة أنا وأخي رفعت وأمي، في المطار وقبل قلوع الطائرة بنحو ساعتين عانقناه جميعاً ودلف إلى صالة السفر تتبعه أعيننا بنظرات حزينة ودموع جرت من عيني أمي منهمرة حبستها بصعوبة وهي تعانقه قبل أن تختفي صورته ببعد المسافة بينها وبينه بعد عبوره البوابة الأخيرة التي استقل بعدها الحافلة ليصل إلى مهبط الطائرة، شعرت بغصة شديدة وأنا أراه يختفي تدريجياً من أمامي بعد أن لوح لنا بيديه ليتوارى بعدها تماماً فلم أره إلا بعد مرور أربع سنوات!

بعض الأشياء تغيرت في شخصية رؤوف في غضون هذه الفترة، تخلى في مظهرة عن ارتداء الملابس الكاجوال والبنطالون الجينز الذي كان مشهوراً به فقد بات مقيداً في معظم أوقاته بالزي شبه الرسمي، بنطالون وجاكيت وكرافات وحذاء كلاسيكي، كان شديد الحرص على التأنق وهي طبيعته التي لم يتخل عنها طوال حياته ولكن زادت عليها

بعض الرتوش، منها الأنواع غالية الثمن من البرفانات ذات الماركات العالمية والنظارات الشمسية القيمة وغيرها من الإضافات الأخرى لزوم الوجاهة، ويزيد على ذلك نبرة الثقة الزائدة في صوته وعباراته وحالة التأني والتؤدة التي صاحبت كل تصرفاته، على عكس ما كان عليه قبل السفر من سرعة الغضب والعصبية والتي كنت أشبهه فيها كثيراً بحكم الوراثة والاكتساب معاً، وقد لاحظت متغيراً آخر جديداً ومهماً على شقيقي الحبيب وصديقي الأول والأخير تمثل في اللامبالاة إزاء أشياء كثيرة كنت أعرف موقفه منها تماماً، ولعلني توقفت كثيراً عند هذا المتغير دون بقية المتغيرات الأخرى العارضة، وقد واتتني الجرأة وسألته عن أسباب عدم اكتراثه بما كان ينشغل به في الماضي فأجابني ضاحكاً، الغربة يا عزيزي تجعل كل الأشياء العظيمة ضئيلة في نظرك أمام شراستها ووحشيتها، فلم أقنع بالإجابة وقلت محتجاً وما بال الغربة وتأثيرها الوحشي على قضايانا الرئيسية، كنا حينها نجلس في المقهى الشعبي بهيلتون النيل، وكعادته كان يجلس واضعاً ساق على ساق، فنزل ساقه وأعتدل في جلسته وقال: أرجو أن تتأكد من شيء مهم ألا وهو ارتباطي الوطيد بمصر وعشقي لها برغم كل ما بها من سلبيات، لكني بحكم التجارب استطعت أن أكون أكثر موضوعية في كل أحكامي وبفضل الغربة صرت أقل رومانسية منك وسأكون سعيداً لو أتيحت لك الفرصة وتحولت عن هذا الطابع باكتساب ما يحميك من نفسك ومن عواطفك الزائدة عن الحد فهي بالأساس ليست أكثر من نقاط ضعف نحسبها مزايا، وعليك إدراك هذه

الحقيقة عني، وهي أنني لم يعد يخيفني إلا ثلاثة أشياء رئيسية في حياتي، أن يجف النيل أو تهدم الأهرامات أو تحدث فتنة طائفية فينفرط عقد الوطن.

كان النقاش مع رؤوف ممتعاً وإن شابه بعض الاحتداد كونه متعصباً لرأيه وصادقاً فيما يبديه من آراء، وما يميز شقيقي الحبيب أنه برغم عصبيته في المناقشة يفسح مجالاً واسعاً للطرف الآخر في الحوار ولا يضيق بوجهة النظر المخالفة، كما أنه يعود بعد انتهاء الجدل حول أي قضية صافياً تماماً ولا يؤثر الخلاف مهما كانت درجاته على الود القائم بينة وبين الشخص المختلف معه، أما أنا فقد كنت طفلة المدلل، يتساهل معي في كل شيء وأي شيء، يجزل إلي العطاء في المشاعر والأحاسيس والأموال، كانت لديه عقيدة بأن الفلس هو أشد ما يكدر الإنسان ومن ثم يحرص على أن يجنبني هذا الكدر ما وسعه ذلك ولا يقيم وزناً للفلوس فهي مجرد وسيلة لتحقيق السعادة، وأستطيع القول بأن رؤوف كان مسرفاً بامتياز في أوقات الرغد، ولم يكن هذا الرغد إلا توافر ما يكفي لنزاهته وأناقته وعيشته في أكبر فنادق الدرجة الأولى التي ترددت عليها مراراً وتكراراً وأنا معه، المريديان – الماريوت – ساميراميس – هيلتون النيل – هيلتون رمسيس، وكذلك أشهر محلات وسط البلد، أوديون بالاس – الأمريكين – إكسلسيور – السويز إير وغيرها فهو يستمتع كثيراً بالأجواء الراقية ويعامل الجرسونات بتحضر وود متناهيين، ويبسط يده كثيراً في التبس ولهذا كان يتمتع بقدر كبير من الاحترام والهيبة.

طبيعة أخي رؤوف وعطائه الزائد عن الحد أضروا به كثيراً فلم يكن يعيش لنفسه كما يفعل الكثيرين، بل جعل كل تركيزه في إسعاد غيرة أياً كان هذا الغير، أخ أو صديق أو زميل أو قريب الكل يتساوى طالما أنه يستحق أن يعامل معاملة كريمة.. الفلوس آخر شيء يفكر فيه رؤوف فإذا توافرت لدية فهي ليست له، وإنما يعم خيرها على كل من حوله، قضى رؤوف فترة قصيرة بالقاهرة سافر بعدها سفره المعتاد ولكن انقطعت أخباره فجأة وتغيرت عناوينه وأرقام تليفوناته كما انقطعت صلته بكل الأقارب والأصدقاء القدامى ومرت الأيام والشهور والسنين تتوالى وتتعاقب ولم نتلق أية أخبار عنه وبدأت الأقاويل والشائعات تحوم حوله وفسر كل واحد من الموجودين بالبلد النفطي غيابة تفسيراً خاصاً ومن باب الإشفاق علينا كان يزعم البعض من المقربين لدينا أنهم قابلوه في أحد المطاعم أو في السوبر ماركت أو في محطة بنزين وتحدثوا معه، ومن باب التأكيد كانوا يصفون شكله ومظهره وصحته ويثنون عليه للتدليل على أنه بخير ولم يصبه مكروه! استمرت فترة الغياب طويلاً جداً لنحو عشر سنوات تقريباً كنا نتحرق طوالها شوقاً وقلقاً.. بعد وفاة أمي بخمسة عشر يوماً عدت إلى القاهرة في ساعة متأخرة من الليل دخلت شقتي الصغيرة الكائنة بحي عين شمس الشرقية، والمكونة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام، شعرت بأن الشقة ضاقت وانكمشت مساحتها على الرغم من أنها خالية من أي أثاث، اللهم غير سرير سفري ودولاب صغير وكرسيين ومكتب، حالة الكآبة التي عشتها بعد وفاة أمي صورت

لي الحياة ضئيلة وكل ما فيها ليس له قيمة فما كنت أعيش بها ولها لم يعد لها وجود، تحاملت على نفسي وقبلت بالأمر الواقع وأخذت أبذل جهداً مضنياً لأتجاوز اللحظات القاسية، ومددت طولي على السرير وأنا بكامل ملابسي، حتى الحذاء لم أخلعة، وبينما أنا أحملق بعيني في السقف، مسلوب القوة والهمة شارد الذهن، رن جرس تليفون البيت فترددت في الرد ظناً مني أن المتصل أحد الزملاء أو واحدة من اللائي تعودن الاتصال آخر الليل للمعاكسة وكان ذلك فعلاً متكرراً و كثيراً ما أصابني بأحاسيس متناقضة ما بين الفرح والانتشاء لمحادثة فتاة جريئة تهون علي وحدتي التي طال أمدها سنوات وما بين الضيق والشعور بتضييع الوقت فيما لا طائل منه وتأجيج الرغبات الكامنة دون نزوع طبيعي لتفريغ الطاقة المكبوتة.. المهم أنة تحت إلحاح جرس التليفون الذي طال رنينه رفعت السماعة وصمت برهة ليبدأ الطرف الثاني بكلمة ألو فأعرف من هو، ولكن ذلك لم يحدث فبادرت أنا بطبيعة الحال، فإذا بصوت لم تخطئة أذني يقول بصوت ملهوف، أيوه يا عبد الرحمن.. ألو ألو.. معك رؤوف فصرخت من أعماق قلبي رؤوف، رؤوف إنت فين يا رؤوف؟ أمك ماتت، أمك ماتت، ماتت يا رؤوف، كانها نفسها تشوفك، خلاص لم تعد موجودة!

أخذ يردد هدي نفسك هدي نفسك خليك راجل إنت مش عيل صغير، كلنا هنموت، وأنخرطت أنا في البكاء لنحو دقيقتين أو أكثر وهو يجتهد في تهدءتي حتى أسكت ويتسنى له سماعي، وسرعان ما هدأ من روعي وعاد يكلمني بشكل شبة طبيعي مواسياً إياي بكلمات مطمئنة

ووعدني بزيارة قريبة للقاهرة نلتقي خلالها سوياً ونبدد الحزن، ولم ينسى في طرف المكالمة أن ينبئني بأنة سيرسل لي مبلغاً معتبراً لزوم " الشبرقة " مشدداً على ضرورة سفري إلى مكان هادئ للاستجمام وانتهت المكالمة التي استغرقت حوالي ربع ساعة فعدت كمن ولد من جديد.

بيت البلد

كنت قد تعودت في حياة أمي أن أسافر البلد مرتين في السنة على الأقل، مره في العيد الصغير ومره في العيد الكبير، فالأعياد في البلد لها طعم آخر، صحبة الأهل والأقارب وأصدقاء الطفولة تجعل للأيام الحلوة طعم مختلف وبصفة خاصة في العيد، كنت أعزب، لم أتزوج بعد، ليس عندي ما يشغلني فلا زوجة ولا أولاد ولا هموم ثقيلة ومسئوليات، اهتمامي كله منصب على أمي وإخوتي وأولاد إخوتي، الحياة كلها مختزلة فيهم وفي عملي الصحفي الذي أجتهد فيه لأكون متميزاً وناجحاً، كنت أصل إلى البلد التي تبعد عن القاهرة مسافة 400 كيلو متر ليلة العيد فالمسافة يقطعها القطار في 6 ساعات، وعلى طول الوقت و شدة الملل كنت أستمتع بالرحلة، أقضي الساعة الأولى في النظر من النافذة متطلعاً في منظر الحقول والأشجار التي تمر كالبرق أمام عيني، وحين أبدأ في عد المحطات أوقن أنني دخلت في طور الانتظار الثقيل فأخرج كتاباً من حقيبتي لأقتل الوقت بالقراءة فهي الوسيلة المثلى للتغلب على معضلة السفر البعيد وفي نفس الوقت لها فائدة عظيمة في تحقيق أكبر قدر من التحصيل، وبالفعل كنت أنجح تماماً في اصطياد عصفورين بحجر واحد، أتغلب على الملل، وأستمتع بقراءة رواية أو مجموعة قصصية أو مذكرات شخصية لأحد المشاهير، وأذكر أنني قرأت عدداً غير قليل من المذكرات في القطار في رحلتي الذهاب والإياب على مدى سنوات، وربما أشهرها مذكرات شارلي شابلن التي ترجمها الكاتب الصحفي الكبير صلاح حافظ في جزأين مهمين للغاية، وأيضاً مذكرات

يوسف وهبي ومذكرات أحمد أمين والد الكاتب الصحفي الشهير جلال أمين، بعد فراغي من القراءة كان الوقت ينتصف والمسافة أيضاً فأسبح بخيالي في صورة أمي وشكلها وهيئتها التي أتوقع أن أراها عليها، وأطرح على نفسي أسئلة من عينة.. هل أجدها منتظرة إياي على باب البيت كعادتها، أم تراها فرغت لتوها من العجين والخبيز والطبخ وتشرف على ترتيب البيت وتبدي ملاحظاتها الدقيقة جداً في شغل شقيقتي رقية التي تهوى قلب الدنيا رأساً على عقب قبيل العيد مباشرة ويحلو لها دائماً التنميق و" الترويق " في الساعات المتأخرة من ليلة العيد، وتتراءى لي صورتها بأشكال عديدة ولم يكن يغب عني بالطبع أنها هرمت وصارت أضعف مما كانت، وكثيراً ما كنت أطرد وساوس الشيطان مستعيذاً بالله منه، فهو يتسلط علي بأفكار تزعجني وتعكر صفوي كأن أتصورها مثلاً مريضة وملازمة الفراش أو أنها تحتضر وتطلبني فلا تجدني بجوارها، تصورات وتخيلات أقرب إلى الكوابيس، كنت أحاول جاهداً التخلص منها بطلب واحد شاي من عامل البوفيه واحتساءه دافئاً لأنشغل وأستفيق من هذا الكابوس معاوداً النظر من نافذة القطار علي أتبين شيئاً في الخارج قبل دخول الليل وانعدام الرؤية.

أصل في ساعة متأخرة من الليل، أطرق الباب الخشبي الضخم بقبضة يدي عدة مرات وأنادي أمي بصوت مرتفع فأسمعها تردد اسمي بلهفة.. عبدالرحمن، ولدي عبدالرحمن، إنه صوته وتنزل على السلم تسبقها أختي رقية إلى الباب فتفتح وحينئذ أدخل من عتبة الباب وأضع حقيبة السفر على الأرض وقبل أن انتصب واقفاً تعانقني شقيقتي وتسلمني إلى

أمي التي تطوق عنقي بذراعيها وتدفع بي إلى صدرها في احتواء غارق في الحنان لبضعة دقائق وعلى أثر الضجيج الذي تحدثه أصواتنا تستيقظ الصغيرة آلاء فأشعر بكائن صغير يمسك بسيقاني محاولاً تسلقي فأحملها بين ذراعي وأمطرها بوابل من القبلات، وفي الصباح نستيقظ مبكراً مع تكبيرات العيد، نتبادل تحية الصباح وننتظر حتى يتم إعداد الفطور الخفيف، الفايش واللبن والقرص المطبقة كفطائر صغيرة شهية ولذيذة، بعد الفطور يأتي سائق السيارة التي ستقلنا إلى المقابر، واحد من سائقي البلد المقربين منا ومحل ثقة، يذهب بنا ويعود بعد الزيارة وقراءة القرآن وتوزيع الرحمة على المشايخ وبعض النقود فئة الجنية والخمسون قرشاً على الأطفال والصبية المنتشرين بالمقابر.

بعد العودة إلى البيت تعد أمي بمساعدة شقيقتي فطوراً آخر معتبراً، كبده محمرة في السمنة البلدي ومخ مقلي وطبق الليمون المخلل المعصفر وشرائح العيش الشمسي، نأكل بشهية ونحتسي الشاي وتلبس آلاء ابنة أختي رقية ثياب العيد الجديدة وتنقدها أمي عيديه محترمة ولا تنسى نصيبي بطبيعة الحال بوصفي آخر العنقود من ناحية ومن ناحية أخرى ضيف خفيف سأسافر إلى القاهرة بعد أيام ولن تراني إلا في العام القادم أو في العيد الكبير على أحسن الظروف، لذا فأنا بحكم بعدي عنها أمثل نقطة ضعف بالنسبة لها ولهذا تولينى عناية فائقة وتحيطني باهتمام شديد.

آخر النهار بعد انقضاء ساعات الصباح في اليوم الأول من العيد نشد الرحال إلى حيث تقيم أختي هنيه وزوجها وأولادها الصغار في

القرية الصحراوية التي لا تبعد إلا ببعض كيلو مترات فقط عن قريتنا، جزء من طقوس العيد نؤديه بشكل اعتيادي بزيارة شقيقتي الوسطى فنستأجر سيارة بيجو سبعة راكب لتكون لائقة وكافية لعددنا أنا وأمي وشقيقتي رقية وآلاء ومن يرغب من أقاربنا في صحبتنا، تحرص أمي جداً على هذه الزيارة وتعد لها العدة فهو تقليد متبع وواجب حتمي لا تريد الإخلال به حتى تقوي أختي أمام زوجها وأهلة وتعلي من شأنها فتكتمل سعادتها، هكذا كان مفهوم أمي للزيارة وهدفها منها، وقد عايشت كل زيجات شقيقاتي في سنواتها الأولى ورأيت أمي وهي تفعل نفس الشيء مع كل واحدة، تدشن لها زيارة معتبرة تشتمل على كل ما لذ وطاب من اللحوم البلدي الطازجة والكبده، والطيور المذبوحة المنظفة والجاهزة للطهي على اختلاف أنواعها، دجاج بلدي وحمام وأرانب، ولا تنسى العيش الشمسي والفطائر وخلطة التوابل والبيض البلدي والملوخية الناشفة والذبده الفلاحي، الجاموسي والبقري، كان لأمي رحمة الله عليها خبرات واسعة في إعداد ما يحتاجه البيت من طلبات كبيرة وصغيرة، ولم يكن تركيزها على البنات فقط، بل شمل عطائها شقيقي الأكبر رفعت وأولاده وزوجته فهو من جنا أول الثمار في بداية حياته واستقراره بالقاهرة هو وشقيقتي الكبرى صفية.

العودة حتى إشعار آخر

أعود من البلد إلى القاهرة بعد انقضاء أيام العيد لأستأنف حياتي مجدداً مع شقيقي رفعت وأولاده، كانت أصعب اللحظات، تلك التي أودع فيها أمي قبل السفر، فبينما أجهز نفسي وأرتب حقيبتي الصغيرة وآخذ في ارتداء ملابسي كانت أمي تغالب دموعها وتتظاهر أمامي بالتماسك وتلهي نفسها بالكلام معي في أي شيء وبالطبع يصلني ما تحاول إخفائه، فكل حواسها تنبأ بمشاعرها الحقيقية ووقع فراقي عليها فما يدور بداخلها هو ذاته ما يدور بداخلي، شعور مؤلم بأن جزءاً سيستأصل مني وأتركه وأمضي إلى حال سبيلي.. لم تحتمل أمي الحبيبة مرارة بعدي عنها إلا من أجلي فأنا من اخترت الحياة في القاهرة وفرضت عليها القبول بالأمر الواقع كشرط لتحقيق حلمها الكبير في وآمالها العريضة في أن أصبح أنبغ أشقائي، وقد ضحت هي بوجودي معها وأولت عنايتي لشقيقي رفعت مبكراً بغية نجاحي وضمان مباشرته لي.. مع اقتراب ساعة السفر لم تكن أمي تقوى على احتمال اللحظة، تغلبها دموعها وتسيل على خدودها المتغضنة ويزداد لمعان عينيها وهي تنظر لي مستجدية في صمت تأجيل سفري يوماً أو يومين، وفي محاولة منها لاستبقائي معها بضعة دقائق تهم بتحضير عدة الشاي، البراد الأبيض المزركش باللون الأخضر والأكواب الزجاجية الصغيرة ناصعة البياض وعلبة السكر وعلبة الشاي والصينية النحاس الصفراء المنقوشة من الحواف بنقوش من ذات اللون بطريقة يدوية مبتكرة، يأخذ تحضير الشاي وقتاً طويلاً يزيد على ربع الساعة فأمي

تقوم بغلي الماء وتصفيته في إناء آخر لضمان التخلص من الشوائب، ثم تعاود غليه مره أخرى وتصفيته في الأكواب بعد أن تضع مقادير السكر المقننة والمطلوبة في كل كوب حسب الطلب مع أعواد النعناع الأخضر أو المجفف، وباحتسائي للشاي أكون قد أمضيت معها الوقت الإضافي المستهدف وتمر الدقائق سريعة وأهم بالوقوف حاملاً حقيبتي في يدي تتبعني أمي إلى ناصية الشارع وتبدأ في البكاء مجدداً وأبكي معها وهي تعانقني وتتمتم بكلمات بصوت متهدج، استودعتك عند الله، تكررها عدة مرات، ثم توصيني بنفسي وتشدد على ضرورة الاتصال بها عند الوصول للاطمئنان، وبدوري أقبل رأسها ويدها وأظل أسير بظهري عدة خطوات ملوحاً لها بيدي حتى يكون اختفائي عنها واختفائها عني تدريجياً.. وأختفي وتختفي وتبقى الصورة المختزنة في الذاكرة هي العزاء الوحيد ورفيق الطريق طوال رحلة العودة وأنا في القطار الذي صار يمثل لي بشكله وصوته حالة من الشجن العميق تصاحبني إلى الآن.

أختي صفية

للتغلب على الشعور بالوحدة والوحشة، كنت كثيراً ما ألجأ إلى أختي الكبرى صفية فأقضي معها معظم الوقت، حيث الحياة في بيتها مختلفة إلى حد كبير فلا حرج منها إذا ما جلست على راحتي بالتي شيرت والشورت أو نمت أمامها في ساعات النهار المملة، فأولادها الأربعة يحبونني كثيراً، علياء ونسرين ومعمر وشريف هم أقرب إلى الأصدقاء منهم إلى أبناء أختي، نظل نتسامر ونختار ما نشتهيه من الأكل والشرب، جميعنا يحب الفاكهة لذا فهي غذائنا الرئيسي طوال اليوم تقريباً، يأتي زوج أختي الأستاذ أمجد زكريا من الشغل في تمام الساعة الثالثة والنصف، يأخذ دش ويبدل ملابسة ويتناول الغذاء وينام، ويذهب معمر وشريف إلى حال سبيلهما مع بداية النصف الثاني من اليوم ليلتقيا مع أصحابهما من صبية وشباب المنطقة وأبقى أنا وأختي وعلياء ونسرين نمضي وقتاً طويلاً في الضحك والهزار وقبل أن يحين موعد المذاكرة أكون قد غادرت البيت إلى مقر إقامتي بمنزل شقيقي رفعت، كنت حريصاً جداً على ألا أثير حنق صفية أو رفعت فأنا ضيف ووجودي في معيتهما مؤقت فإن آجلاً أو عاجلاً سأنفصل عنهما وأستقل بحياتي، كان الاستقلال حلم يراودني فلا أحلم بأكثر من شقة صغيرة تؤويني وسرير سفري أنام علية بمفردي ودولاب يضم ملابسي وأغراضي الشخصية ومكتب أكتب علية دون الانحناء على ترابيزة صغيرة أجلس على طرف صغير منها يتسع بالكاد لاستيعاب كتاب أو كشكول، لم أكن أعاني اضطهاداً بالمعنى المعروف

ولكن أشعر باستلاب حريتي الشخصية ويؤرقني التكلف الذي أصادفه أحياناً في المعاملة فلا أحس أني عضو أصيل في الأسرة برغم المحاولات المبذولة من جانب البعض لإشعاري بذلك، كان الاحتفال بعيد ميلادي يكشف لي دائماً أنني على صواب فيما أحسه تجاه من حولي، فدائماً يأتي الاحتفال بعيد ميلادي مقتضباً وفي أضيق الحدود وكل الهدايا المقدمة لي لا تخصني ويجوز لأي شخص أن يشاركني فيها، فمثلاً زجاجة كولونيا خمس خمسات ومعجون أسنان وشبشب حمام وعدد ماكينات حلاقة بلاستيكية، كلها أشياء تصلح للاستخدام الجماعي، ومن ثم لم تكن تنطلي علي حيلة الاحتفال بعيد ميلادي كتعبير عن الحب وصدق العاطفة، وكثيراً ما قاومتها وعملت على وقف هذا التقليد السنوي المجوج.. أبناء شقيقي رفعت الأربعة، وعد والوليد وأمير وشاهنده كانوا في فترة إقامتي معهم مرتبطين بي إلى حد كبير فهم من كانوا يتحمسون ببراءة شديدة إلى فكرة الاحتفال بعيد ميلادي كونها فرصة للابتهاج وكسر الروتين ومن ناحيتي كنت أمتن كثيراً لمشاعرهم الرقيقة ولا زلت أدين لهم بفضل هذا النبل وربما ذلك ما جعلني أتجاوز عن خلافات كثيرة وقعت بعد ذلك كنت فيها ظالماً ومظلوماً، ومضت السنوات بحلوها ومرها ولكن بقيت الذكرى تداعبي مابين الحين والآخر فلم احتفظ بغير الحلو فقط أما المر فأودعته في خزينة حديدية وأغلقت علية ونسيت أمره تماماً.

أيام الأقواز الجميلة

عشت في قرية الأقواز بمركز الصف بمحافظة الجيزة أياماً لا تنسى، كنت دون العشرين أرى الدنيا بعين البراءة المطلقة، لا يعكر صفو حياتي شيء فأنا أحلم بذلك العالم السعيد، الشهرة والمجد والمستقبل الموعود، تعودت أن أزور تلك القرية مرة على الأقل كل عام في إجازة نصف السنة بصحبة شقيقي رفعت وأولاده، حيث نحل ضيوفاً على ابن عمي الأستاذ مؤمن الذي يشغل منصباً مرموقاً ويقيم في فيلا مكونة من طابقين على مساحة واسعة تحيطها الخضرة من كل جانب وتحتل موقعاً استراتيجياً داخل الوحدة المجمعة التي تضم مدرسة ومستشفى صغير ومنحل عسل ومشتل برقوق ومزرعة دواجن ومصنعاً للألبان وملعب كرة قدم، كانت الزيارة السنوية لي بمثابة متنفس مهم للغاية، حيث الخروج من زحمة القاهرة والاستمتاع بالجو الريفي النقي والهروب من المذاكرة والتصرف بحرية أكثر بعيداً عن قيود البيت الذي كان يتحول إلى معسكر في فترة الدراسة.. كنت أنا وآمال وأمينة وإيتاب نمارس شقاوة الصبا فنذهب مع رفقاءنا من أبناء السكان المهاجرين، محمد صابر وبطة وعيد إلى ملعب كرة القدم ومنه إلى المنحل لنحصل من العمال على كميات وفيرة من العسل الأبيض المخلوط بالشمع أثناء عمليات الفرز المتعددة بالخلايا، كانت سعادتنا غامرة ونحن نمتص العسل من الشمع وهو لا يزال خام قبل مرحلة التكرير والتنقية، لا نكتفي بما نحصل علية من كميات صغيرة للأكل بل كنا نتسابق على إحضار الأطباق لنفوز

بكميات أخرى إضافية ننقلها لمن هم في البيت من الذين كانوا يقابلون شقاوتنا ومغامراتنا بالضحك والفكاهة ويحرضوننا كنوع من المداعبة والتسلية على استجلاب المزيد وبدورنا كنا نستجيب للغواية ونعود ثانية للمنحل لنكرر المغامرة.

لمشتل البرقوق أيضاً حكايات عديدة معنا أنا وآمال وأمينة وإيتاب، نحاول اقتحامه فيستعصي علينا ذلك لأن تعليمات صدرت للعمال من ابن عمي الأستاذ مؤمن بعدم اقترابنا من المشتل الذي يعد واحداً من المشروعات التنموية المهمة للوحدة المحلية بقرية الأقواز، لذا كنا نحتال على عم خليفة، العجوز الذي يجمع الساقط تحت الشجر من ثمار البرقوق ليبيعها للأطفال الخمسة بشلن فنذهب إلية لنشتري منه ببريزة عشرة حبات وأثناء عملية الشراء نغالطه في العدد فنحصل على ضعف الكمية تقريباً مستغلين كبر سنه وانحناء ظهره وضعف ذاكرته وتنتابنا حالة من النشوة ونحن نمارس علية ألاعيبنا الشيطانية ونوهمه بأننا أعطيناه خمسة قروش أخرى بعد البريزة الأولى، وحين يضيق بنا يجري وراءنا بعصاه فنتفرق ونحن نضج بالضحك و سرعان ما نعود إليه في اليوم الثاني فيستقبلنا بحذر لكنه يتعامل معنا من باب الارتزاق.

نقضي طوال النهار مابين اللعب في الوحدة المجمعة والانتقال من مشتل البرقوق المحصن إلى منحل العسل وحديقة المدرسة، ثم ينتهي بنا المطاف آخر النهار في الفيلا الفسيحة المبنية على الطراز الانجليزي، نصعد إلى الباب عبر ثلاث درجات من الرخام لندخل إلى بهو واسع

وممر طويل في نهايته غرفة الجلوس ومنحنى للمطبخ يتصل به من الجانب الأيسر سلم عتيق بترابزين حديدي يؤدي إلى الدور الثاني المكون من ثلاث غرف وحمام، تطل الغرف الثلاث على الأشجار ومساحات الخضرة التي تميز المكان كله الذي يشبه المنتجع إلى حد كبير، نوافذ الفيلا تفتح من أسفل إلى أعلى بشكل طولي يجعلك تتصور أنك تطل من بوابة وليس مجرد نافذة، كانت تبهرني هذه التفاصيل المعمارية المختلفة عن الشقق السكنية التقليدية واسرح بخيالي في مكونها الجمالي وأجدني مشدوداً لسحر المكان بأكمله متمنياً أن أقضي حياتي كلها فيه وأن تمتد إجازة نصف السنة إلى آخر العمر.

صحبني ابن عمي الأستاذ مؤمن كثيراً إلى بيوت الفلاحين والمزارعين بالقرية، كنت أشعر بالفخر وأن أجلس في مجالس الأعيان وأراهم يعاملونه بتبجيل واحترام متناهيين وأسمعهم حين يخاطبونه ويسبقون اسمه بلقب الرئيس أو "الريس " كما ينطقونها تخفيفاً للإيقاع والجرس، سمعت هذه الكلمة كثيراً من مرؤوسيه موظفين وعمال فمنهم من كان يتردد على المنزل لتلبية الاحتياجات الضرورية أو إصلاح أعطال الكهرباء والمياه والتليفون، وهناك أشخاص كنا نعرفهم عز المعرفة ونرتبط بهم كونهم يترددون كثيراً على المنزل بحكم وظائفهم وتخصصاتهم مثل السائق والكهربائي والسباك وعامل المزرعة وطبيب الوحدة الصحية وغيرهم ومازلت إلى الآن أذكر أسماء البعض منهم، عم قرني الجنايني وابنته سلمى الفلاحة السمراء الخجولة الطويلة جداً وشقيقها محمد

الذي يشابه أباه وشقيقته في الطول النشاز الزائد عن الحد والملفت للنظر، وأيضاً الأسطى طانيوس الكهربائي رجل المهام الصعبة والمنقذ الدائم لنا في حالات انقطاع الكهرباء الذي كان يمثل تكديراً حقيقياً لنا لأنة يمنعنا من السهر ويجبرنا على النوم المبكر ونحن الراغبين في مشاهدة التليفزيون ومتابعة برامجه أو الجلوس أمام الفيلا على ضوء اللمبات النيون المثبتة بالواجهة، وعادة الجلوس في الهواء الطلق كان يهواها شقيقي رفعت فهو من يبادر بفرش الكليم الصوف ووضع المسند والتكايه ويجمعنا حوله ليحكي لنا بعض ذكرياته القديمة ويقص لنا القصص ويروي لنا النكت ونحن مشدودين مسرورين عاكفين على قزقزة اللب وأكل الفول السوداني واحتساء الشاي بالنعناع الأخضر الطازج.

هناك فترة سابقة من ذكريات الأقواز لم يعاصرها إيتاب وتتذكرها أمينة التي تصغرني بعامين ونصف العام بالكاد أما آمال فبالقطع عاشت تلك الفترة المبكرة كما عشتها وتحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، وهي الفترة التي سبقت وفاة ابنة عمي، زوجة ابن عمي الأستاذ مؤمن وأم الأبناء الثلاثة أو بمعنى أدق الأربعة لأن هناك شقيقتهم الطفلة الصغيرة التي تركتها أمها رضيعة فلم يرد ذكرها فيما رويت لأنها لم تكن قد ولدت بعد، هذه الطفلة هي فريدة، ولدت قبل وفاة والدتها بنحو عام واحد تقريباً كبرت بيننا وتولت رعايتها عمتها رضوى التي انتقلت من الصعيد لتقيم بشكل دائم مع شقيقها الأكبر الأستاذ مؤمن لتتولى مسئولية البيت والأبناء وهو ما حدث بالفعل لمدة تجاوزت العشرين عاماً أبلت خلالهم

بلاءاً حسناً حتى صار الأبناء الأربعة في سن الشباب فجميعهم تخرج في كليات مرموقة وحصلوا على درجات الماجستير والدكتوراه عدا آمال التي اكتفت ببكالوريوس التجارة وتزوجت، أما فريدة فقد صارت طبيبة وسافرت إلى بلد عربي وعملت هناك بعد انتقالها مع زوجها، ويرجع السر في تفوق هذه العائلة الصغيرة المتضامنة إلى تقوى الأب واستقامته وارتباطه الوثيق بأبنائه ورفضه الزواج مره أخرى بعد وفاة زوجته التي لاقت وجه ربها وهي في أواخر الثلاثينات من عمرها محتفظة بكامل شبابها ورونقها وجاذبيتها، فلم تمرض على الإطلاق وماتت واقفة كشجرة خضراء طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ليلحق بها الأستاذ مؤمن بعد أن أدى رسالته كاملة راضياً مرضياً.

سنوات الدراسة بمعهد الموسيقى العربية

لم تفارقني غواية الموسيقى وهواية الغناء فكل الظروف الصعبة التي مررت بها لم تثنيني عن حلم الشهرة والمجد والأضواء فكلما زاد الخطب زاد إصراري على تحقيق الحلم البعيد العنيد، وبرغم معارضة أمي ورفض شقيقي رفعت لدراستي للموسيقى والتحاقي بمعهد الموسيقى العربية قدمت أوراقي ودخلت لجنة امتحان القدرات مع عدد كبير من المتقدمين وجاء دوري أمام اللجنة المكونة من خمسة أساتذة كبار لم أعرف منهم أحد على عكس ما كنت أظن فقد تخيلت أنني سأجدهم من المشاهير الذين أطالع صورهم يومياً في الصحف وأراهم في التليفزيون وأسمع موسيقاهم وألحانهم في الراديو، وقفت أمامهم كمن يقف أمام ملائكة الحساب، أحاول التقاط الأنفاس وأتظاهر بالشجاعة بينما يدل ارتباكي الشديد على صعوبة اللحظات الدقيقة التي يرتجف لها قلبي ويجف حلقي وأكاد أسقط مغشياً علي من شدة الرهبة والخوف.. بادرني رئيس اللجنة الذي عرفت فيما بعد أنة عازف الكمان الشهير حسن ماهر بسؤال أنت عايز تلتحق بقسم الأصوات فرددت بنعم فأردف قائلاً: المغني لازم يكون جريء هه، حتسمعنا إيه؟ كان بقية الأعضاء يلوزون بالصمت وينظرون لي في تحفز، شعرت أنهم بالفعل ملائكة الحساب وهالني المكان العتيق الراسخ الذي ينبئ كل شيء فيه بتاريخ عظيم فائت فهاهي صور أعلام الموسيقى الراحلون معلقة خلفهم على الجدران، عبده الحامولي وسيد درويش وصفر علي وكامل الخلعي وسلامة حجازي، صور

بالأبيض والأسود أخذت لهم منذ سنوات طويلة وهم في كامل أناقتهم وبالزى الرسمي، البذلة الكاملة ورابطة العنق والطربوش، لحظات استغرقتها في تأمل تفاصيل الحجرة الموسيقية وخلفياتها عدت بعدها للتعامل مع اللجنة ولما أذنوا لي بالغناء وكنت قد حضرت مسبقاً ما سوف أؤديه وتدربت عليه تدريباً جيداً وهو كوبليه من أغنية ذكريات الملحمية الوطنية لعبد الحليم حافظ من كلمات الشاعر الغنائي أحمد شفيق كامل وألحان عبد الوهاب.. بدأت في تنغيم المقدمة الموسيقية بصوتي لبضع ثوان ثم اندمجت في الغناء وعشت بإحساسي كل كلمة في الأغنية بلحنها وموسيقاها ونسيت الخوف والرهبة واللجنة وأنا مغمض العينين سابحاً في ملكوت عبد الوهاب الموسيقي ورائعته الوطنية مستعيراً صوت عبد الحليم بآهاته وسكناته وآلامه فلم أستطع أبداً الفكاك من تأثيره الإنساني والفني علي واختتمت الأغنية بحالة من حالات التجسيد الدرامي للكلمات التي يقول جزء منها.. إزاي في اللد وفي الرملة كانت العمله مأساة كاملة – استشهد أخويا في أراضيها بين روابيها – وحبيبته خطيبته منساش لوعتها وكلامها لصورته – ازاي ياحبيبي ازاي غشوك – ازاي بسلاحك بإيديك قتلوك – فتلوك!

ما إن انتهيت من الوصلة الغنائية الدرامية المؤثرة حتى سمعت تصفيق اللجنة المشجع والمبشر بالنتيجة فلم يطلب مني رئيس اللجنة أو أي من الأعضاء الإعادة كما حدث مع من سبقوني من المتقدمين معي للامتحان وخرجت من غرفة الاستماع مسروراً للغاية بعد أن تأكدت

تقريباً من قبولي لا سيما بعد أن قال لي رئيس اللجنة حسن ماهر مبروك وأنا على باب الغرفة لحظة الانصراف ولم يكن ذلك معهوداً.

خلال أسبوع واحد ظهرت النتيجة وكنت من المقبولين، وشعرت بأني أدخل عالماً جديداً يختلف كلياً عن مراحل الدراسة السابقة من حيث نوعية الطلاب وكثافة العدد وطبيعة الدراسة، في اليوم الأول تعرفت على مجموعة قسم الأصوات وذهبت مع بعضهم لنقل جدول المحاضرات المعلق على الحائط، السبت محاضرة العزف للدكتور أحمد مناع يليها محاضرة الصولفيج والفوكاليز للدكتور بهاء، أما الأحد والثلاثاء والخميس فكانت محاضرات الدكتور عبد العزيز أستاذ الموشحات، غير أن هناك مادة التاريخ الموسيقي لم يتحدد موعدها في الجدول لأسباب إدارية، أعجبت كثيراً بأسماء المواد الموسيقية التي كانت غريبة تماماً على أذني فهي أسماء لاتينية غير معربة يجري التدريس بها وقد تعودناها فيما بعد فصارت متداولة بيننا، كنت من فرط سعادتي بدراسة الموسيقى لا أشعر بأني في محراب دراسة له خصوصية وقداسة، لكني تعاملت مع الأمر كونه ممارسة لهواية لم أستطع إشباعها خارج المحيط الأكاديمي الرسمي.

كنت من الأصوات المميزة بين طلاب الفرقة الأولى لذا كان يعن لي أحياناً استعراض إمكانيات صوتي بين زملائي لتأكيد فارق المهارة والقدرات الخاصة ولا أنكر أن شهادة دكتور أحمد مناع أستاذ مادة العزف " العود " من أنني أمتلك أصابع مثالية تمكنني من العزف

بانسيابية على العود لو أحسنت التدريب، فضلاً عن صوت يتميز بالدرامية الشديدة، هذه الشهادة جعلتني أكثر ثقة، بيد أن الدكتور عبد العزيز أستاذ الموشحات لم يختارني ضمن أعضاء الفرقة الأساسية للمعهد في السنة الثانية والثالثة من الدراسة لأسباب لا تزال مجهولة بالنسبة لي وربما هذا ما جعلني أفكر جدياً في التحويل من قسم الأصوات إلى قسم الآلات لدراسة الكمان لكن ذلك كان يستلزم أن أعود مجدداً إلى الفرقة الأولى فصرفت نظر عن الفكرة نهائياً وصعدت إلى الفرقة الثالثة وأنا غير راض عن مستوى الدراسة وعن نفسي فأثر ذلك سلباً على دراستي وحال دون استمراري في المعهد فاتجهت اتجاهاً آخر مختلف بعد أن عرفت طريق الصحافة وصرت واحداً من الكتاب الهواة بمجلة الكواكب في باب " رأي الجمهور" الذي كنت صديقاً دائماً له ولا زلت أدين بالفضل لمحرر هذا الباب الشيق الذي كان سبباً رئيساً في تحول مساري بالكلية من الموسيقى والطرب والغناء إلى دنيا الصحافة والكتابة والتي سيأتي ذكرها لاحقاً بالتفصيل في سياق متصل منفصل في تجربة أخرى.

الانفصال عن الأسرة

حين بلغت عامي الحادي والعشرين أدركت ضرورة استقلالي عن بيت شقيقي رفعت، حيث زاد إحساسي بأني ضيف ثقيل تجاوز بكثير فترة الضيافة المسموح بها والمنطقية لأي إنسان ومن ثم أخذت في الإلحاح على أمي لتمكنني من الحصول على شقة مستقلة أبدأ فيها حياتي المستقبلية وكنت قد ادخرت 2000 جنية في دفتر توفير ببنك مصر الدولي، ترددت أمي كثيراً في الموافقة على طلبي المفاجئ فكيف لي أعيش بمفردي بعيداً عن شقيقي وأنفق على نفسي وأنا عاطل عن الوظيفة والعمل المستقر، ولو فرض أنها ساعدتني حتى أقف على قدمي فما عساها أن تفعل لو غررت بي واحدة من إياهم وانحرفت وضاع حلمها في، أمي تخشى القاهرة ولا يمكن أن تأمن شرها أبداً فهي المدينة الواسعة التي لا يعرف فيها أحد أحداً، كل واحد فيها مسئول عن نفسه فحسب ومعنى أنها تتركني أستقل بنفسي وبمفردي في شقة فهذا لا يعني إلا ضياعي لذا أصرت على رفض المبدأ رفضاً قاطعاً مانعاً.

وبقيت في حيره من أمري بين أن أستمر الضيف الثقيل في بيت يضيق كل يوم بي وفق إحساسي على الأقل، وبين الضرورة الملحة في أن أبدأ الشروع في البحث عن مسكن يلائمني ويناسب إمكانياتي المحدودة جداً، وكانت الخطوة الأولى التي اتخذتها دون الرجوع لأي شخص متمثلة في استئجار غرفة مفروشة بمنافعها فوق السطوح بالقرب من شارع أحمد عصمت بعين شمس بسبعين جنيهاً في الشهر وحزمت حقيبتي الصغيرة

بعد أن وضعت بها بعض الملابس والأغراض الشخصية وانتهزت فرصة خروج شقيقي رفعت وأسرته ونزلت بالحقيبة من البيت متوجهاً إلى سكني الجديد في حوالي الساعة الثامنة مساءاً بعد أن دفعت إيجار الشهر الأول والتأمين وحصلت على مفتاح الغرفة، ودخلت باب العمارة المكونة من خمسة طوابق وصعدت السلم إلى آخرة حتى وصلت السطوح ودخلت الغرفة متحسساً مكان مفتاح النور وأضأت المصباح الكهربائي المتدلي من السقف وأنا أغالب إحساساً قاسياً بالوحشة والخوف من ذلك المكان المقبض بأثاثه الرخيص ولون الجدران الكالح الناضح بالكآبة والإضاءة الصفراء الكابية المميتة.. وقفت وسط الغرفة حزيناً حائراً وأنا أتأمل نفسي في مرآة الدولاب القديم وأنظر بأسى وحزن شديدين كأني شخص آخر لا أعرفه، وقبل أن تمضي ساعة واحدة لذت بالفرار من هذا الجحيم وعدت من حيث أتيت تاركاً مبلغ التأمين وإيجار الشهر والمفتاح ولم يكتشف أخي رفعت أنني غبت عن البيت وشرعت في الهروب.

تكررت هذه الواقعة مره أخرى حين أشتد بأسي ويأسي من الحصول على شقة للإقامة الدائمة والاستقرار فطرقت باب الشقق المفروشة من جديد يحزوني الأمل في أن أجد ما يناسبني وكان في هذه الأثناء يوجد مسكن لمجموعة من الطلاب بشارع شجرة مريم بالمطرية، من بينهم اثنان من أقاربي فسألتهم عن إمكانية السكن معهم فأبلغوني بأن سعر السرير في غرفة مشتركة بثلاثين جنيهاً للفرد فوافقت على الفور، وفي مساء اليوم الثاني قابلت صاحب البيت، رجل طويل نحيل

مجعد الشعر يرتدي جلابية بياقة إفرنجي تدل على أنه نصف متعلم، يبدو دبلوماسياً في حديثة وبالرغم من ذلك لم أسترح له ولكني حجزت سريراً ودفعت الثلاثين جنيهاً مقدماً بدون تأمين، والمدهش في هذه المرة أني لم أحزم حقيبتي ولم أذهب من الأصل إلى السكن، كنت أصاب بحالة من الانقباض الشديد من أجواء الشقق المفروشة والبؤس البادي على كل شيء فيها، الإضاءة الشحيحة والأثاث المتهالك والمفروشات البالية والشماعات المعلقة على الحوائط تحت صفحة من جريدة قديمة تحمل ملابس رثه، والأرضية المكشوفة المتسخة ورائحة العطن المنتشرة بأرجاء المكان وبقايا الأطعمة الرخيصة الملفوفة في أكياس البلاستيك وملقاة في ركن من المطبخ وعلى الطاولة، الحمامات المشتركة التي تشبه المراحيض العمومية.. كل هذه الأشياء كانت كفيلة بترددي في مسألة الإقامة في الشقق المفروشة أو بالأحرى طرد الفكرة تماماً من رأسي، حيث لا أقوى على العيش تحت هذه الظروف الصعبة.

الزواج هو الحل

في أثناء رحلة البحث المضنية عن مسكن قابلت سمسارة، امرأة عجوز تقتات من بيع الخضروات والفاكهة المعطوبة التي تبيعها بثمن أرخص من السوق بما يجعلها مفضلة لدى البسطاء من الناس، تعمل تلك المرأة في مجال السمسرة من باب الاجتهاد في زيادة الدخل ولا يتعدى نشاطها الحيز الجغرافي الذي تقيم فيه، مجرد شارع أو شارعين، دلني أحد السابلة عليها فذهبت إليها وشكوت لها حالي وحيرتي فقالت بمنتهى الثقة عندي طلبك، شقة ثلاث غرف وصالة وحمام ومطبخ بالدور الرابع في بيت خمسة أدوار على شقة واحدة بمدخل كبير وسلم واسع، والمكان مش بعيد، على بعد 500 متر من هنا يعني ممكن تشوفها فوراً لو حبيت، لم أكذب خبراً وتوجهت معها إلى الشقة ومن أول نظره على البيت من الخارج أخذت قراري بعدم السكن لكن كان علي أن أكمل المشوار للآخر ولن أعدم السبب الذي يبرر لي الرفض، خاصة أن الأسباب متوافرة، صعدت السلم بصحبة السمسارة إلى الدور الرابع وطرقت هي الباب ففتحت لنا فتاة جميلة في عمر الزهور لا يتجاوز عمرها السبعة عشر ربيعاً، عرفت السمسارة وفهمت القصد وغابت لحظات وجاءت أمها مرحبة وسبقتنا إلى الشقة بالدور الأعلى ولم يخف عليها استيائي وعدم قبولي فسرعان ما حولت الأمر إلى زيارة عائلية وكأن هناك سابق معرفة ونزلت معنا إلى الدور الثالث حيث تسكن هي وبناتها الخمسة وزوجها وولديها الصغيرين، وبينما نحتسي الشاي الذي أتت به الابنة

الوسطى التي فتحت لنا الباب في البداية بادرت الأم بالسؤال: الشقة دي للزواج إن شاء الله؟ وقبل أن أجيب عن سؤالها المباغت، أردفت قائله لو للزواج ما أنصحكش لأن بصراحة البيت قديم وبه شروخ من الزلزال، وقد تعجبت من هذا الاستهلال العجيب ولكني فطنت إلى المغزى، فالأم تستهدف شيء آخر أبعد وأهم من تأجير الشقة، هي تمهد للكلام عن الخطوبة والزواج وتصدر لنا أجمل بناتها ليقع الاختيار عليها وبالفعل حدث ما استهدفته الأم المخضرمة ونحينا موضوع الشقة جانباً وقادنا الحديث إلى المستقبل والعفة وتكوين البيت والأسرة، وطالت بنا الجلسة وتتابع تقديم المشروبات في جو غلب عليه الترحيب والبشاشة وتلقائية الحديث مني ومنهم، وابتلعت الطعم، وفي المساء كنت أنا وأخي رفعت في زيارة خاصة لهم لمقابلة الأب بخصوص خطبة الفتاة التي لم تفارقنا طوال الجلسة الودية النهارية، وتم الاتفاق على الأساسيات واستدعيت أمي من البلد التي فوجئت بالخبر وجاءت على عجل لتتبين الأمر، وفي غضون شهر أعلنت الخطوبة وتم الاحتفال في واحد من النوادي الكبرى التابعة للقوات المسلحة للاستفادة من التخفيض المخصص للعسكريين فشقيقي رفعت عسكري ووالد العروس عسكري أيضاً.

كانت هذه محطة قصيرة جداً في حياتي إذ سرعان ما تم فسخ الخطوبة لعدم ارتياحي وإحساسي بطفولة الفتاة الزائدة وسذاجة رب الأسرة المتناهية وسيطرة الأم سيطرة كاملة وتحكمها في كل كبيرة وصغيرة، لم أكترث بما خسرته على المستوى المادي وما وجه لي من انتقادات حادة من

شقيقي وأمي، وعدت مجدداً للسعي في تحقيق حلم الشقة وفي هذه المرة لم يكن بوسعي إرجاء الحلم أكثر من ذلك لأن التأجيل يعني بكل وضوح تشردي في الشوارع أو تسكعي عند شقيقتي صفية أو فرض نفسي مرة أخرى على شقيقي رفعت الذي ساءت علاقتي به جراء تمسكي بفسخ الخطوبة وإصراري على عدم إتمام الزيجة وهو ما ترتب عليه توتراً شديداً في العلاقة بيننا استمر فترة طويلة كوني شعرت بضعف موقفي وقلة حيلتي أمام الظروف القاسية التي وضعت نفسي فيها أو فرضها علي القدر.. المهم أنني لم أتخلى عن فكرة الاستقلال التام لأنعم بحريتي وأخرج من قبضة من يطعمني ويأويني وناضلت كثيراً حتى أقنعت أمي وأيدتني بعد تأكدها من أنني صرت في العراء، وعليه امتلكت ثمن الشقة واستأنفت رحلة البحث الشاقة عنها حتى عثرت عليها بعد نحو ثلاثة شهور من النزول المتكرر مع السماسرة وأدعياء السمسرة من النصابين والمحتالين والمبتزين.

كنت أتأهب للخروج للترفيه عن نفسي بعض الوقت حين هاتفني صديقي جمال منصور ليبشرني بخبر حصوله على شقة متميزة بشارع العشرين بعين شمس، متشطبة وعلى المفتاح، لم أصدق نفسي ونزلت من بيت أختي مهرولاً إليه وفي أقل من ساعة كنت أنا وهو في قلب الشقة مع صاحب العمارة نتفق على المقدم والإيجار، ومن جانبي وافقت على كل الشروط وكتبت العقد في اليوم التالي في وجود إثنان من أبناء عمي الكبار، وخلال 24 ساعة كنت منتقلاً إليها تماماً بملابسي وكتبي فقط

لا غير دون أدنى شيء من وسائل الإعاشة، في المساء فرشت رزمة من الجرائد والكراتين وارتديت قطعاً فوق بعضها من ملابسي الشتوية كي أحتمي من برد الشتاء، ونمت نوماً مطمئناً عميقاً، ولم أشعر بأي برد أو قلق أو خوف.. كل ما كان يشغلني أن أبلغ أمي بهذا الانتصار العظيم.

18 سنة بين أربعة جدران

شهدت شقة عين شمس أهم مراحل كفاحي وتحديات الوحدة والمرض والنفي بعيداً عن الأهل والأقارب، لقد كان وجودي بين أربعة جدران مستقلين حلماً فصار واقعاً أتمتع فيه بحرية كاملة غير منقوصة فلا أوامر ولا تحكمات ولا معايرة بالنوم والأكل والاستضافة، أنا الآن حر نفسي آكل ما أشتهي وأسهر حتى الصباح وأستقبل أصدقائي من غير تبرم أو استياء من أحد، شقتي الصغيرة المكونة من حجرتين وصالة ومطبخ وحمام وبلكونه على الشارع هي مملكتي، أسستها أثاثاً بسيطاً جداً، سرير صغير من الخشب عرض 90 علية مرتبة قطن ومخدتين، وضعته في جانب من الغرفة تحت الشباك المطل على المنور، وقبالته نصبت دولاب بضلفتين ومرآة ليحوي ملابسي التي ظللت طوال حياتي أضعها في حقيبة كبيرة تحت السرير فلم يكن لي يوماً ضلفة خاصة بي أحتفظ فيها بقمصاني وبنطلوناتي ولوازمي الأخرى، الدولاب على صغره كان يحوي أشياء كثيرة، القطع الداخلية في رف والقمصان في رف والبنطلونات والجواكيت والسويترات في الضلفة الأخرى المخصصة للشماعات، اشتريت السرير والمرتبة كاش، أما الدولاب فاشتريته بعد فترة قصيرة من إقامتي في الشقة بالتقسيط مع كليم صوف للأرضية ووابور جاز بشرائط مع بعض الأواني الخاصة بالمطبخ.

كانت حياتي بسيطة للغاية ولم أشعر يوماً بضجر لضيق ذات اليد، الدخل المادي الشهري كان متغيراً وضعيفاً ومع ذلك كان لدي إحساس

عال بالقناعة والزهد فيما عند الناس، بعد مرور سنة اشترى لي شقيقي رؤوف أثناء وجودة بالقاهرة في إجازة قصيرة مكتب وكرسيين ومكواة كهربائية ما زلت أحتفظ بهم إلى الآن وقد مضى عليهم ثلاثين عاماً.. خلال ثمانية عشر عاماً من العزوبية كانت تسليتي الوحيدة هي الكتاب فقد عكفت على القراءة لقتل الوقت والتزود بالمعرفة فقرأت ما يربو على ألف وخمسمائة كتاب في السياسة والأدب والفن التشكيلي والموسيقى، فالكتاب كان نديمي مع الراديو الذي يشعرني بالونس والصحبة، الراديو والمسجل حيث شرائط فيروز وعبد الحليم حافظ وأم كلثوم والشيخ إمام والشيخ يسن وجوليا بطرس ومارسيل خليفة وخطب عبد الناصر وصوت الإذاعي الكبير جلال معوض، كنت أطرب لهذه الأصوات الحلوة على اختلاف تنوعها ومذاقها وتميزها وتأثيرها.

بعض الأصدقاء كانوا يزوروني أحياناً للسؤال عني، خاصة جمال وحاتم، وأنضم إليهم فيما بعد ابن عمي طارق الذي كان طالباً في الجامعة ومحولاً من أسيوط فلم يكن يطق الإقامة بالمدينة الجامعية وكثيراً ما كان يتردد علي حتى صرنا لا نفترق إلا قليلاً، وبين الحين والآخر كانت تزوروني واحدة من شقيقاتي وشيئاً فشيئاً خفت الزيارات ثم سرعان ما انقطعت نهائياً.. زيارات أمي كانت موسمية وقليلة بحكم السن وبعد المسافة فقد اكتفت في المرحلة الأخيرة من حياتها بالمكالمات التليفونية والاطمئنان عن بعد لحين سفري في الأعياد والطوارئ، كان يحزنني صوتها الواهن الذي ينبأ بتدهور صحتها واقتراب موعدها، في كل مره

أسمع صوتها أشعر بغصة في قلبي وإحساس قاتل بالتقصير تجاهها، لقد هرمت أمي وصارت أضعف من أن تبدي رأياً أو تحتج على شيء لا يعجبها وبقيت مستكينة وهي القوية المشتعلة بالحيوية طوال حياتها، ضعفت ذاكرتها فنسيت الأسماء والأشخاص وصار لنا أسماء أخرى تنادينا بها، لم يعلق بذاكرتها غير القديم، القديم جداً، هي تردد طوال الوقت أسماء أبيها وأمها وأخوتها وأخواتها الراحلين.. شاخت الذاكرة وعجز العقل عن استيعاب مزيد من الهموم.

محنة المرض العضال

وأنا في الثلاثين من عمري قابلت مغنية أمريكية من أصول لبنانية تدعى تريزا، كانت صديقة لمخرج تليفزيوني ربطتني به علاقة طيبة استمرت سنوات أثناء عملي في الجريدة اليسارية الكبرى، استضافتنا المغنية في بيتها ورحبت بنا أيما ترحيب فهي مغنية ومقيمة بشكل مؤقت في القاهرة ويهمها بالطبع أن تكون على صلة بالصحافة والإعلام وقريبة من الأضواء، وقد توسمت في صديقي محمود علام النبل والإخلاص وتصورت أنه الخيط الذي سيوصلها بأهل الفن والأسماء المرموقة في الوسط الثقافي، لذا اهتمت بزيارتنا اهتماماً خاصاً وقدمتنا لشقيقها الذي كان يقيم معها في الشقة المفروشة بالدقي وبناءً على ما أبدته تريزا تجاهنا أنا وصديقي محمود من اهتمام وحسن استقبال رحب شقيقها بنا، وفي إطار بروتوكول الضيافة المعتاد قدمت لنا القهوة وأخذت تسامرنا وتحكي لنا عن آمالها وطموحاتها الفنية وما تنتوي تقديمه في القاهرة، وكنت قد فرغت أثناء حديثها من ارتشاف فنجان القهوة فنظرت لي ملياً وطلبت مني وهي تتفرس ملامحي أن أناولها الفنجان كي تقرؤه لي وأعجبتني الفكرة ولكن اندهشت من تركيزها علي أنا بالذات دون صديقي محمود علام وهو من عرفني بها وكان سبباً في الزيارة، ولكني لم أتوقف كثيراً عند هذه التفصيلة ولشدة فضولي لمعرفة ما سيقوله الفنجان أعطيتها إياه، تناولته منى وأمسكته بين أصابعها وقلبته يميناً ويساراً وهي تحملق فيه

وبعد لحظات رفعت عينيها وهي تقول: فنجانك حلو جداً هناك حصان يقفز من فوق الحواجز!

أصغيت لها وطلبت منها المزيد من القراءة والتفسير فقالت ستعيش عمراً ليس بالطويل وليس بالقصير وستتزوج وتنجب ثلاثة أطفال وصمتت طويلاً ولم تنبس بكلمة فأثارت فضولي وعدت لألح عليها كي تصرح بما تراه دون تحفظ، فاستطردت.. ستمرض حين تبلغ سن الأربعين بمرض عضال ولكنك ستنجو منه وستموت شخصية مهمة في حياتك تحبك أكثر من نفسها وفي محاوله لتحديد الشخصية أشارت بيدها في حركة دائرية حول عنقها كأنها تلف شالاً أو طرحة كناية عن أن الشخصية هي امرأة ملثمه فقلت لها مستفسراً.. أمي؟! فأومأت برأسها دليلاً على التأكيد، وأمضينا وقتاً قصيراً بعد هذه النبوءة ثم انصرفت أنا وصديقي محمود وقد لعبت برأسي تكهنات تريزا، تلك السيدة القصيرة الشقراء ذو الشعر الأصفر المصفف بعناية والعينان الملونتان الجميلتان، ولا أنكر أن ما زعمت وجودة في الفنجان قد شغلني لفترة طويلة، خاصة أن بعضه وقع بالفعل في توقيت قريب مما حددته، فقد ماتت أمي بالفعل وأنا على مشارف الأربعين من العمر، فضلاً عن أنني تزوجت وأنجبت ثلاثة أطفال وليس هذا فحسب، بل أصيبت بالمرض العضال الذي تنبأت به وظللت في محنة الكشف والتحاليل والأدوية والعيادات والمستشفيات أحد عشر عاماً تنقلت خلالها بين الأطباء راجياً الشفاء ومنصاعاً لما يقولونه انصياعاً كاملاً، آكل بحساب وأشرب بحساب

وأنام بحساب وأتصرف كأسير لا يفعل إلا ما يملى عليه وصرت صديقاً للأدوية وزبوناً دائماً في الصيدليات ومعامل التحليل فعينات الدم التي أخذت مني على مدار 11سنة تزيد على ما تبقى في عروقي وشراييني فأنا أخضع لعمليات سحب العينات مره أو مرتين في الشهر الواحد ولكن من حسن حظي وفضل الله علي أنني لم أصل للمراحل الصعبة في المرض اللعين فقد أنقذني العلاج المكتشف حديثاً والذي قضى بشكل نهائي على العدوى فصرت في مأمن من أي خطورة، وسواء كانت نبوءة المرأة اللبنانية الأمريكية حقيقة أو مصادفة فإن ما جاء بها حدث بالفعل بعضة أو كله تقريباً!

مساء 31 يوليو - 2003

مرضت أمي مرضها الأخير ولزمت الفراش وتوارت نضرتها وخبا جمالها تماماً ونحل جسدها وبدوري كنت أراقب بحسرة هذا التطور السلبي المتلاحق في صحتها وتتراءى لي صورتها الأولى وهي بكامل لياقتها وفي عز هيبتها، في الحادي والثلاثين من يوليو من عام 2003 وفي تمام الساعة الخامسة والنصف مساءً تلقيت خبر وفاتها وأنا عاكف على مكتبي غارق في الأوراق لإعداد الصفحتين الثقافيتين اللتان كنت أشرف عليهما في الجريدة التي عملت بها ثلاث سنوات بعد أن تركت الجريدة اليسارية الشهيرة..، استدعاني رئيس مجلس الإدارة " ن. ش " في مكتبة وطلب مني وهو متأثر للغاية أن أترك ما في يدي فوراً وأخرج من حافظته مبلغاً من المال ووضعه في يدي وهو يردد البقاء لله شد حيلك، أدركت دون أن أسأله عن الخطب أن أمي باتت في ذمة الله، لم أستطع تحريك جسمي من الكرسي ولم أقوى على النهوض فساعدني زميل على القيام وللملم لي أشيائي وأوراقي المبعثرة على المكتب وانتظرت في الجورنال لحين مجيء ابن أخي لنسافر سوياً إلى البلدة، كنت قبل يومين فقط أجلس بجوارها وهي نائمة كالملاك على سريرها في غرفتها بالدور الأرضي، ولم يجول بخاطري أنها سترحل بهذه السرعة برغم علمي بما تعانيه، لكن الأمل في شفائها لم ينقطع حتى آخر لحظة، تركتها وسافرت للقاهرة لتدبير بعض النقود ودفع الإيجار والكهرباء وإنهاء بعض المتعلقات الخاصة بالعمل وإبلاغ رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

بظروفي حتى أكون في مأمن من أي مفاجأة غير سارة.. ركبت سيارة بيجو من موقف سيارات الصعيد على عجل، قطعت السيارة الطريق في 6 ساعات فوصلت متأخراً عن مراسم الدفن والوداع وهو ما ترك بداخلي حزناً مضاعفاً لم يمحى إلى الآن فلازالت نظرة أمي وهي ترمقني في صمت وأنا واقف بجوارها متأهباً للسفر تلاحقني فلم أسامح نفسي ولم ولن أنسى هذه اللحظة.

شريط الذكريات يمر سريعاً أمام عيني كأنة فيلم سينمائي طويل، طفولتي وصباي وصورة أبي الذي لم أنعم بدفيئة، وكفاح أمي المرير من أجل تربيتنا أنا وأشقائي ومرارات الأيام القاسية بصقيعها ورتابتها وبؤسها، تذكرت أمي وهي تحكي لي مناماً رأتني فيه أمسك بكتاب وأصعد سلم بيتنا الريفي القديم مهرولاً إليها وصائحاً، نجحت – أنا نجحت ولم يكن هناك موسماً دراسياً ولا موعداً لظهور النتيجة، قصت علي الرؤية وهي مستبشرة ضاحكة، وحين سافرت إلى باريس بعد سنوات لحضور مؤتمر مهم ذكرتني برؤيتها وحين رأتني في التليفزيون لأول مره هاتفتني تليفونياً قائلة في سرور بالغ، ما كنتش خائف ولا مضطرب، بس أنا كنت مرعوبة عليك مش عارفة ليه!

رحلتي الطويلة التي استمرت بين بلدتي الصغيرة الحنون بشوارعها وأزقتها الضيقة وغيطانها ونوارجها وأهلها الطيبين، وبين القاهرة الساهرة الساحرة التي عشقتها طفلاً وصبياً ورجلاً، ميادينها وساحاتها وأنوارها، كل هذه الصور تتداخل في ذهني ومخيلتي، تبعد حيناً وتقترب أحياناً..

شخصيات عشت معها وعاشت بداخلي أعمامي وخلاني وجدتي لأمي التي رأيتها بعينيها وسمعت حكاياتها منها وجدي لأبي، المتدين الوسطي التقي وابن عمي شامل، ذلك الذي صادقته في نهاية حياته بعد أن عاد من هجرته الطويلة في بلاد النفط وأعدت اكتشافه وودعته الوداع الأخير.. تماماً مثلما ودعت شقيقاي الحبيبان، رؤوف ورفعت وهما في كامل صحتهما وعنفوانهما في أسبوع حزين واحد وانقطعت صلتي بهما إلا من زيارات متصلة لقبريهما، لم ينذرني الموت برحيلهما كي أستعد للصدمة، باغتني الرحيل فزلزل الأرض من تحت أقدامي وصرت في مهب الريح كزورق تتقاذفه الأمواج في محيط مخيف، مات رؤوف في بلاد الغربة وحيداً وهو مطمئن غير عابئ بشيء.. سافر سفره الطويل هذه المرة دون أن يخبر أحداً فكما كان جريئاً في حياته كان جريئاً أيضاً في موته فلم يمرض كي يمهلنا فرصة لوداعة ولم تكن هناك أية مقدمات لفراقه ورحيله، انسحب من الحياة بهدوء كنسمة صيفية عابرة واستقبلت نعشه في مطار القاهرة بعد غياب استمر سنوات طويلة قاربت الثلاثين عاماً لم أره خلالها إلا مرات معدودة، احتضنت الصندوق الذي يرقد فيه وهمست إليه أبلغه السلام وأوصيه بأن يحمل سلامي إلى أمي وأبي وفي طريق العودة إلى البلد حيث يواري الثرى جثمانه الطاهر صرت أحدثه وأحكي له كل ما ادخرته من حكايات حتى وصلنا ففرقت بيننا الجموع الغفيرة من المشيعين الذين انتزعوني بقوه من فوق الصندوق الذي التصق جسمي به وحملوا الجثمان الطاهر إلى المسجد ليصلوا علية صلاة الجنازة إيذاناً بالدفن، تقدم شقيقي رفعت ليؤم المصلين ويدعوا لشقيقة بالرحمة والمغفرة، استغرقت الصلاة

نحو عشر دقائق وخرجنا من المسجد بصعوبة بالغة، إذ التف المئات حول النعش كل يحاول أن يلمسه.. شقيقاتي صفية ورقية وهنيه وبناتهن وبنات العائلة ونسائها، حتى الشباب صاروا يتسابقون على وداع شقيقي الوداع الأخير، وركبنا سيارة الموتى إلى المدافن ولحظة نزول الأمانة تسمرت قدماي فلم أقوى على الحركة وشخصت ببصري نحو شقيقي الذي استلمته الأيادي لترقده في أمان الله رقاده الأبدي في مقبرة يسكنها بمفردة!

لم يمض سوى أسبوع واحد على رحيل رؤوف فبينما نحن غارقون في حزن شديد نحاول مقاومته كي نبدو متماسكين أقوياء، تأتي الضربة الثانية القاصمة لتعلن تحديها لصلابتنا المزعومة فها هو شقيقي رفعت يستدعيني لأصحبه في سيارتة لنزور قبر رؤوف وأبي وأمي المتجاورين وهناك رأيته يبكي لأول مره في حياتي وهو القوي الحمول وهالني وجهه المحتقن وعيناه الحمروان المتقرحتان من البكاء الشديد فاقتربت منه محاولاً تهدئته لكنه ظل يبكي ويخاطب أبي وأمي وشقيقي رؤوف بعبارات رثاء وصوت مختنق فأشفقت عليه وشعرت بنذير شؤم جديد وبجهد جهيد استطعت التأثير عليه ليكف عن البكاء لنفارق المكان قبل غروب الشمس وذكرته بأنه لا يحب قيادة السيارة ليلاً، فاستجاب وتوجهنا نحو السيارة قاصدين البيت، وطوال الطريق لم يحدثنى إلا عن الموت وتذكر أصدقائه الراحلين في تأس بالغ وقال فيما يشبه الوعظ أن الميت حين يموت يصرخ ثلاث صرخات، حين يصلى عليه وحين يشيع وحين ينزل

القبر فيقول: لا تغرنكم الدنيا كما غرتني يكررها ثلاث مرات، انقبض قلبي وهو يقولها في خشوع ولكني حاولت طرد الوساوس من عقلي إلى أن وصلنا البيت، وفي اليوم الثاني ذهبت لأستريح قليلاً عند أختي هنيه في القرية المجاورة لقريتنا وعلى غير العادة استيقظت مبكراً ووجدتني أهاتف رفعت دون ضرورة ملحة فرد مندهشاً من اتصالي المبكر ودار بيننا حديث خاطف عن موعد سفرنا للقاهرة والترتيبات اللازمة، ولكن ظللت قلقاً فأنا أشعر بأن شيء ما سيحدث ولكني هربت من هذا الشعور المقيت بالنوم ثانية وقمت من الفراش بعد حوالي ساعتين لأجد أختي هنيه قد أعدت لي الطعام وما إن فرغت من الأكل حتى سمعت همهمه وصوت زوج شقيقتي الأستاذ سعود في التليفون متأثراً وهو يتحدث بحذر ليخفي مصيبة كبيرة قد وقعت، فهرعت إليه مستفسراً وكان الجواب مقتضباً للغاية، يبدو أن الأستاذ رفعت تعبان بعض الشيء، ومن نبرة الحديث واختناق الصوت أدركت أن المسألة اكبر من مجرد التعب، وخرجت للشارع أنا وشقيقتي كالمجانين تتبعنا سيارة ملاكي أرسلها خلفنا الأستاذ سعود لتقلنا إلى البلد وهناك عرفت أن شقيقي رفعت فاضت روحة ولحق برؤوف فاقتحمت البيت وشققت صفوف المتجمهرين لأصل إلى حيث ينام شقيقي الحبيب مسجى بغطاء أبيض وقد كست وجهه ابتسامة الرضا فقبلته في جبينه ويده وبقيت بجواره حتى الصباح أدعو له وأتلو ما أحفظه من سور القرآن الكريم بصوت متهدج ودموع تنهمر من عيناي دون إرادتي، وقبل طلوع الشمس كنا قد انتهينا من كل الخطوات السابقة للدفن، ووقفت على المقبرة التي كنت

أقف عليها بالأمس القريب لأودع ثانية الأخ والأب ولم يفوتني أن أقرؤه السلام ليبلغه لرؤوف هذه المرة.

انفض المشيعون وانقضت أيام الحداد والعزاء والمواساة وظل الحزن قابعاً في الأعماق، وربما الحسنة الوحيدة التي وهبني الموت إياها هي إعادة اكتشاف البشر في ضوء النكبات والأزمات، فقد رأيت الأقارب وأعز الأصدقاء غرباء لا أعرفهم ولا يعرفونني بعدما رفعوا عن أنفسهم الحرج وأسقطوا آخر أوراق التوت وصاروا أمامي عرايا بوجوه غير الوجوه وألسنة غير الألسنة، حتى عناوينهم تغيرت فأسقطهم من ذاكرتي وذهبوا جميعاً غير مأسوف عليهم، ولم يتبقى لي غير زوجة أتكئ عليها كي أستأنف السير وابن صغير وطفلتين، أرى العالم بعيونهم البريئة وتطربني أصواتهم حين يستيقظون في الصباح محدثين الجلبة اليومية، الصغار هم ثمار العمر الطازجة والضوء الذي يضيء النفق المظلم أمامي.

لقد بلغت العام الثاني والخمسين ولا زلت أعيش بقلب طفل يبكي حين يفرح ولا يغادر قلبه الوجع وبرغم ما أبديه من شجاعة في مواجهة الملمات والانكسارات إلا أنني أشعر بفقد شديد وأسمع صدى سؤال يتردد بداخلي.. هل كنت على موعد مع قدري كما تنبأت لنفسي وأنا صغير؟! وهل ما خطته يداي في الأجندة القديمة التي سجلت بعض يومياتي قبل سنوات طويلة كان حجة علي فحملت وزر ما كتبت وصرت موصوماً به لأني سبقت القدر في كتابة معطيات حياتي وفق ظروف كنت أعرف مداها ومآلي فيها؟

تلك الأسئلة طرحتها على نفسي وأنا موقن أن الإجابات غير متوافرة لدي.. لكنني ظللت أسأل، حيث أني لا أملك سوى الأسئلة.

تمت

القاهرة – 12 – 10 – 2017

المحتويات

إهداء	3
مقدمة	5
فطرة الفلاح البسيط	9
أمي	14
بيت العائلة	17
كرنفالات العزاء	23
عتبة عبد الكريم	27
أحاديث المصطبة	31
حكاوي العفاريت	38
في المدرسة الابتدائية	41
الفاجعة	48
سماح جميل سمعان	51
العودة للمدرسة	55
مفترق الطرق	58
محمد أبو شوشة	60
مرحلة المراهقة	64
أنا ومروان والبيزنس	68
الخروج من جنة زين العابدين	70

ملابس شمس الأصيل	79
شارع شريف	81
نادي القاهرة الرياضي	85
مدرسة ناصر الثانوية	88
العودة إلى القاهرة	94
مصر الجديدة	99
16 \ 4 \ 1983	102
بيت البلد	109
العودة حتى إشعار آخر	113
أختي صفية	115
أيام الأقواز الجميلة	117
سنوات الدراسة بمعهد الموسيقى العربية	122
الانفصال عن الأسرة	126
الزواج هو الحل	129
18 سنة بين أربعة جدران	133
محنة المرض العضال	136
مساء 31 يوليو – 2003	139